

مُرافعة البلبلي في الفحص

رواية يوسف القعيد

دار الشروق

صفحة فارغة

مِرَافِقَةُ الْبَلَاءِ فِي الْفَقَصِ

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جراد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلکس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص. ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برلین : داش-ررق - تلکس : SHOROK 20175 LE

١ - هكذا تبدأ القصة

إمرأة
وقاض
ومحام
وكاتب
وضابط
ومؤلف

إمرأة طويلة ، تقف في القفص ، تتشعلق في الحديد بيديها ، وقاض يجلس على الكرسي العالي . فوق رأسه ميزان ، من المفروض ألا يميل ناحية الشمال ، والأيميل ناحية اليمين . وامرأة أخرى مصلوبة على الحائط . وإن كانت معصومة العينين .

وكاتب لم يعد أمامه سوى الجلوس في مقاعد المتفرجين . تتأرجح أحلامه بين قفص المرأة الحديدى ، وقلم القاضى الذي يخط به على الورق . يلوث بحبره بياض الصفحات ، فيحدد مصائر خلق الله .

والمرأة الأخرى المصلوبة على الجدار ، الواقف خلف القاضي والذي يضع نهاية لعالم المحكمة ، المرأة المصلوبة ، تنكسر نظراتها، تحت العصاة التي تغطي عينيها . تعلو رأس القاضي . تتسع القاعة أمام الكاتب ، تمتلئ بخلق الله . لكن الامكانية الوحيدة المتاحة أمامه هي الجلوس في مقاعد المتفرجين .

إمرأة ، وقاض ، ومحام
وكاتب ، وضابط ، ومؤلف .
هم كل من يسكنون هذه القصة .

والقصة عنوانها مكون من ثلاث كلمات وحرف « مرافعة البلبل في القفص »
والقفص من السهل التعرف عليه . ما إن تدخل من باب القاعة ، حتى تذهب
عينك إليه . يقف فيه من ينتظرون لحظة النطق بالأحكام ، ولم يخبرنا أحد -
حتى الآن - لماذا تندفع في حبه القلب منا ، حالة من التعاطف مع من يجلس فيه ،
حتى لو كان مجرمًا .

أنت تقرأ في هذه اللحظات ما اتفقنا منذ البدء على أنه قصة ، ما من قصة في
هذا العالم ، ولدت بصورة شيطانية . وإن كان لكل قصة مؤلف ، فإن الأمر
يختلف هذه المرة .

أحد أبطالها كاتب . لنكن أكثر صدقًا ، ولنغلق كافة الأبواب والنوافذ التي
يمكن أن يتسلل منها الكذب الجميل ، ولكننا نأخذ الذين ليسوا أبطالاً في هذه
القصة كاتب .

وهناك من قبله المؤلف ، الذي كتب القصة ، أو قصة القصة . إسمه طويل :
محمد يوسف يوسف القعيد [بضمه على القاف وشدة مكسورة على الياء] ،
ومحمد إسمه ، ويوسف الأول إسم والده ، ويوسف الثاني إسم جده ، والقعيد
لقبه .

وأصل العائلة يعود إلى بطن من قبيلة القرعان ، التي هاجرت من شبه
جزيرة العرب ، مع عمرو بن العاص ، خلال فتح العرب لمصر .

استقر المهاجرون في جرجا بصعيد مصر ، وما زال يسكنها أربعون الفا
منهم حتى لحظة كتابة هذه الكلمات ، وربما أضيف إلى العدد الفان ، عندما
نصل إلى برهة قراءة القصة ، فيصبحون إثنتين وأربعين الفا من النفوس .

هاجر فرع من العائلة . هج إلى بحرى ، حيث استقر في قرية الضهرية مركز
ايتاى البارود ، محافظة البحيرة . وعمومًا فإن دوافع الهجرة ، وأسباب
الرححان ، وخلفيات الطفشان من فرن قبلى ، إلى طراوة بحرى ، التي تبدو مثل

دمعة البنت البكر ، هي قصة أخرى . تخرج عن سياق حكاية البلبل والمرافعة والقفص .

اسم المؤلف الحقيقي الطويل . جرى إختصاره إلى اسم ثنائي، يقولون عنه في أوساط من يحملون الأقلام . يوسف القعيد . ومن يقابل بين الاسم المدون في الأوراق الرسمية وهو طويل ، والاسم المختصر . يكتشف أن الثاني اسمًا للشهرة ، كما يقال عادة في مثل هذه الأحوال .

ما إن عرف أن القصة فيها قفص ، حتى هز كتفيه ، وقال - ربما لنفسه - ما الدنيا إلا قفص كبير . في القصة قاض حر ولكنه غير طليق ، وامرأة في القفص ، وإن كانت غير سجينه ، وكاتب يجلس في مقاعد المتفرجين ، ويتسكع في شوارع المدينة لحظة إزدحامها بالبشر المأزومين . وضابط مطلى من خارجه بطلاء يعطى الانطباع بالجسارة ، وأعماقه ترتعش من الخوف . ومحام لم ينتدبه أحد، ولا حتى المؤلف نفسه .

قرر المؤلف ، إن يحجز لنفسه مساحتين في القصة ، مكان البداية ، وسطور الختام . أنانية ١٩ ربما . ولكن هذا ما كان ، برر الأمر لنفسه .

قال إن القصة ، هي العالم الذي يخلقه ، ومن حقه أن يفعل به ما يشاء ، لأنه لا يفعل ذلك سوى عندما يمسك بالقلم ، وتكون أمامه المساحة الفارغة من الورق .

مؤلف

ومعالى الضابط

ومحام

وقاض

وامرأة

ها هم ، الذين يتحركون من خلال أفعال القصة . يقفون في المسافة ما بين

القفس والمنصة . وما ادراك ما المنصة ، وماذا تفعل بالناس ؟ عمومًا - ومرة ثانية - تلك حكاية أخرى .

جاء محمد بن يوسف بن يوسف من آل القعيد . أو يوسف القعيد ، فالاختصار والاقتصاد مسألة صعبة ، والدش يقدر عليه الجميع . جاء إلى قاعة المحكمة . نظر إليها . مسح جدرانها بنظراته . خرج ، عاين المكان المحيط بها من الخارج . زفر بضيق . لا يوجد في أى من جدرانها القديمة والكالحة شبك يطل على بحر النيل .

ولا يرتفع حولها شجر زاهى الخضرة . يفرش الأرض بالظلال . والأرض أمامها ليست سمراء غامقة ، مشربه بلون الطمى البنى الداكن .

بدون هذا الرباعى ، رائحة بحر النيل ، والخضرة المتماوجة على وجه الأفق ، المنسدلة في المسافة من السماء إلى الأرض . والأرض السمراء ، والظلال المفروشة عليها ، مثل ثياب أهل الجنة بدون هذا الرباعى ، يشعر بالاختناق الذي يسبق طلوع الروح .

عندما شاهد الكاتب ، الذي يجلس بين المتفرجين ، المؤلف ينصرف بسرعة ، وهو يبرطم :

- لن أعود إلى هنا أبدًا .

سأله :

- على فين العزم ؟

قال المؤلف .

- أبحث عن الثانية الأولى ، من الدقيقة الأولى ، من الساعة الأولى ، من اليوم الأول ، من الأسبوع الأول ، من الشهر الأول ، من العام الأول .
- وهل ستجدها ؟

قال :

- لا بد من الطوفان الأول ، والسفينة البكر ، ونوح الأول .

قال له الكاتب :

- هذا فيما بعد ، المهم لا بد من طوفان . ذلك هو الخلاص ، ربما الوحيد .

٢ - قصة أولى من غزلان

حزينه كنت حتى الرغبة في البكاء .

- غزلان .

وحيدة رغم الصخب والضجيج والدخان ، وتداخل الباعة والحاجب ومناقشات المحامين ، وصفقات شهودا الزور ، الذين سيصبحون في ساحة المحكمة ، شهود النفي ، وشهودا اللاتبات حسب مقتضى الحال ، وشروط الشهود المعروضين للإيجار معلنة ، بالصوت الحياى ، وخوف شهود الصدق ، أن يتوه صدقهم في رمال الزيف ووسط أبخرة الكذب.

زحام من المتسكعين والعاطلين في دروب المحاكم ، أناس لا يعانون من الفراغ فقط ، ولكن لديهم تلك القدرة الفريدة على التحليق والبطقة والتحديث في وجوه الآخرين ، وحشر أنوفهم حتى تحت جلود الناس . تنزل من أعينهم خيوط دهشة المقهورين .

نودى عليك ، تقدمت في مساحة القفص الضيقة ، قبل أن تردى ، يداك على قلبك ، الوجه مثل صفحة سماء صيفية خالية من زرقة السماء ، لا يوجد فيها ، ما يشير إلى ظلال سحب كاذبة .

- إسمك ؟

بدا وجهك يطلع من الضباب ، شيئاً فشيئاً . أدت رأسك ، إستمعت إلى صوت عروق رقبتك ، وكأن الصدا قد لفها من كل جانب .

- غزلان .

إستمعت إلى صوتك وأنت تنطقين بالاسم ، فبدأ الصوت مدهشاً لك . أسندت جبهتك إلى يديك ، وكأنك تحاولين إنتزاع الكلمات من تجويف الرأس . ويظل وجودك مسنوداً على يديك لفترة قد تطول . لم تجدى في الرأس ما يمكن إقتلاعه من الأفكار والكلمات والحكايا .

كنت تهمسين ، وكأنك قدر ركبت فوق شفتيك كاتماً للصوت ، يخفض من صوتك بعد النطق بالكلمات ، لدرجة أنه يصبح من الصعب وصولها إلى آذان الآخرين . تصغين إلى صوتك الآتى من بعيد ، المغلف بصدى الكهوف القديمة . تحاولين الامساك بطفولتك الهاربة ، والتشعلق بأيام العفرتة والشقاوة ، تلك اللحظات المجدولة من فصوص السكر وقوالب الشهد .

ـ عملك ؟

طأطأت رأسك تحت وطأة السؤال الثاني ، تشعرين بحالة من الهشاشة التي تكاد أن تحيط بك من كل ناحية .

ـ غزلان .

نصف ميتة كنت ، تموت الكلمة الوحيدة على شفتيك اثناء محاولة النطق بها ، ولا تخرج أبداً . تحاولين التحليق بجناحي زغلول لم يكسهما الريش بعد . زغلول ينام مسترخياً في دفء عش الأم وتحت باطها .

مقطبة الوجه لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهك ، حتى لو أجبرت نفسك على الضحك ، فإن مشروع الضحكة ، كان سيرتد إلى داخلك ، يجوس في تجاويفك ولا يتجه إلى الخارج .

ـ عمرك ؟

صعدت مع زميلاتك إلى القفص ، الذي يوجد في قاعة المحكمة ، الصعود كان على سلم حلزوني ، يطلع في منتصف القفص ، وآخر السلم من تحت ، ينزل إلى المكان الذي يجرى فيه تفريغ الوارد من السجن ، حتى تنعقد جلسة المحكمة .

في أول الطابور حارسة ، وفي آخر الطابور حارسة ، يسبق اسم كلا منهما ،
كلمة شاويش .

في منتصف الطابور كنت ، وفي منتصف القفص جاءت وقفتك ، فانزاحت
عنك رعشة الخوف ، وهذا قلق التوتر .
- غزلان .

يلمع في مقلتيك بريق هادئ ، وتحط كل عصافير الكون على رموش عينيك
الطويلتين .

تمشيت في القفص ، تبخترت فوق أرضيته الوسخة ، كدت أن تدوسين على
أعقاب السجائر وبقايا السندوتشات وقشر اللب . فكرت . بحثت في ذهنك عن
تلك الإنسانية ، خالية القلب ، رائقة البال ، التي وقفت في القفص ، وهي تقزقز
اللب ، بدلاً من التوهان في غابات الخوف والمجهول .

حاولت التحليق فوق السحاب ، ولكن السماء كانت بعيدة يفصلك عنها
سقف المحكمة ، والأدوار التي تنام فوقه .

يشترك وجهك كله في البوح والكلام عندما تنطقين . واللاتى حولك
يتضاحكن ، يثرثرن . إنها نفس الكلمات التي تقال عادة في مثل هذا المكان ، منذ
أن تم بناؤه . وسوف تظل تقال إلى أن يتم هدمه . يوم لا يكون على الأرض
محاكم ولا مساجين ولا سجن ولا سجانون .

تتماحك رفيفات القفص والبرش والمحنة ، تحاول كل واحدة منهن ، إصطياد
نظرات رجل ما . يتباكين . ضحكة ثم بكاء ، وبعد البكاء ابتسامة . تتغير أشكال
أحنكة المحيطات بك ببطء . إنها القصص المعادة نفسها . تصعد إلى الحناجر ،
ويبدأن في اجترار الكلمات ، مثلما كانت تفعل المواشي ، في براح الغيطان البعيدة ،
بعد وجبة خضراء ، لم يعد لها وجود في أيام الجذب وأزمة الجفاف .

- هل اعتدت على ممارسة الدعارة ؟

- غزلان .

هيفاء ، طويلة ، عمود من العمدان التي ترفع السماء عن الأرض . سمراء
كأنك قطعة نساها الليل ومضى هارباً أمام النهار الذي جاء قبل أوانه .
فوق سمارك ملابس فضفاضة بيضاء . يفوح منها الطيب والمسك ، ومن
الاعطاف ينتشر بخور ، يحمل إلى الروح ذكرى مجالس العشاق . إبتسامة قبل
النطق بالكلمات ، إبتسامة قبل نزول الصمت . يا لقدرتك على الابتسام وأنت في
هذا الموقف العصيب . قطع من النور تضيء ظلال وخفايا ليل جمالك الجميل .
- ما هو سبب وجودك في الزمان والمكان الواردين بمحضر الضبط ؟
- غزلان .

جسدك مشدود على قالب من الجمال . عندما جاءت كل ردودك ، على كافة
الأسئلة بكلمة واحدة ، لم يسكن التلجلج بين الأحرف ، كما يحدث - عادة -
عندما تتكلم بنات المقدر والمقسوم . لم تقومي بالتجول بين الأكاذيب ، حتى
يمكنك العثور على أكثرها مناسبة ، واقواها قدرة على إستدرار الدموع .
- ما هو ردك ، على ما جاء في أقوال الشخص الذي ضبط معك ، من إن هناك
اتفاقاً قد تم مع وسيط ، وإن جعلنا من المال قد دفع ؟

جاء الطابور من السجن ، في صندوق سيارة مغلق بقفل كبير ، كنت
تسمعين صوته واضحاً عند الفتح والاعلاق . سجن متحرك على عجل ، شبابيك
الصندوق الصغير عبارة عن حزم متشابكة من الأسلاك الشائكة . والباب
صغير ، لا يمر منه الإنسان إلا إذا انحنى . والقدرة على الانحناء أهم ما يطلب
من أى كائن حي . وكل من يرفع رأسه ، إستجابه لنداء أو شعار ، فهو يقدمها
للسيف الباتر ، ومصيرها أن تطير في الهواء ، مثل الكرة . ولكن الكرة أكثر أهمية
من الرأس .

- غزلان .

بدأت الرحلة من سجن النساء وقت الفجر الأزرق . عندما كان القمر يدخل

تحت سحابه كثيفة ، يستر بها عرية الليلي ، من نور النهار الفاضح . كان الليل
يُخلع الثوب الأزرق ، الذي مزق به رداء الظلمات ، ويرتدى جلباباً رمادياً .
سرعان ما يستبدله بقماشة صفراء ، فيها لون نور الشمس الصباحي البكر ،
الذي لم يلوّثه أحد بعد .

– هل أنت مذنب ؟

لن تعودى إلى السجن ، إلا بعد نزول الليل القادم ، عندما تصبح سماء الله
العالية ، مساحة من الظلام ، منقوشة بنجوم لا حصر لها ولا عدد . كنت تتمنين
أن يكون أول ما تقومين به ، بعد الخروج من السجن ، هو أن تعدى هذه
النجوم ، ولكنك لم تسأل نفسك : هل تقدرين ؟

– غزلان .

اللاتى حولك ، منهن من تبكى ، ومن تصرخ ، ومن تقول أنها بريئة ، ومن
تقسم أنها مظلومة ، ومن تزعمق قائلة إن القضية جرى تلفيقها لها . ومن
أصبحت عيناها كاسات من الدماء . ومن تثن ، ومن تحكى ، كما لو أنها بلعت
كل راديوهات العالم .

أما أنت ، فتقفين في براح ملابس السجن البيضاء الواسعة عليك تبسمين ،
وتحركين شفتيك في هدوء ولا تقولين أكثر من :

– غزلان .

تقولينها للقاضي ، ولزميلات الزنقة والوحشة ، أرهقتك الأسئلة ، التي لا أول
لها ولا آخر ، والإجابة المكونة من كلمة واحدة . عندما قلت غزلان ، لآخر مرة .
حدقت في القاضي والشهود ، والضابط ، الذي يقف في الناحية الأخرى من
المحكمة ، والمتفرجين بوجه مرن ، كان المشهد كله يطفح بالرتانة .

بدوت يا غزلان تائهة في ذكرياتك ، البعيدة والقريبة ، ربما كنت تحاولين
إقامة بيت في الهواء ، أو أن تسندى جدران عمرك حتى تقينها السقوط أو

الإنهيار . أو أن تكتبى ردودك على الأسئلة الموجهة اليك ، على وجه الماء .
تحاولين استعادة روحك من قطرات الدموع ، تداعبين عروق زغاليل الحمام
الدافئة ، في الغية التي تقيمناها فوق صفحة خيالك الطافحة ، على سطوح بيتك
الذي كان تائها وسط المغارب الشاحبة .
كان السؤال ، قبل الأخير :
- هل معك حمام ؟
- غزلان .

رجوت دموع العين أن تسعفك ، ولكنها لا تأتي عندما نريدها . قصتك
مطمورة في حبه الفؤاد ، في ابعد مكان عن حنجرتك .
الذهن غافل ، في النفس فراغ ، وهناك رغبة في الغفو ولو قليلاً من الوقت .
متى تفرجين عن الابتسامة المعتقلة بداخلك ؟ متى تطلقين بريق عينيك لكي يشع
حولك ؟ متى تخرج روحك من كل هذا الانتظار المغيظ ؟
أسئلة أخرى كثيرة كانت تطرحها عليك القاعة والمحكمة والناس ، وحتى
غبار الجو ولغط الأصوات من حولك .
العودة ، الخطوات وكأنها ظلال وغيوم . سيارة المرواح ، ولكن إلى أين ؟ من
الجدران الأربعة إلى القفص ، إلى الجدران الأربعة مرة أخرى . سيارة الرجوع ،
هل هي نفسها سيارة المجيء ؟ تفكرين فيما آل إليه الحال . من كان يتصور ؟
نوبة شجن ، نوبة أسى ، نوبة حزن ، نوبة تأمل ، نوبة رحيل إلى كهوف
الداخل ، نوبة خروج من بحار التعاسة ، نوبة الرغبة في البكاء ، ولكن أين هي
دموع العين ؟
نوبات ، نوبات ، نوبات . ليس من بينها نوبة فرح ، ونوبة حبور أبداً ، أبداً ،
أبداً .

قصة ثانية عن الضابط

الموت قبل الحياة ، العقوبة قبل النجاة ، التهمة أولاً ثم يدوون السبع دوايات بحثاً عن البراءة المستحيلة . لا مفر من السياسة ، هي منقذى الوحيد ، معجزة المعجزات . الاكسير الذي يقدم لنا الحل السحرى فى اللحظات العصبية . تطل السياسة ، وتدس أنفها فى أى قضية ، من القضايا ، فتقدم الحلول الخيالية ، كلما تعقدت الأمور فى وجو هنا .

بالسياسة سأنتصر عليهم جميعاً . المهم أن تكون هناك تحريات دقيقة ومحكمة بصورة جيدة . زبون من دول الرفض ، زبون من أولئك الذين يتكلمون ليلاً ونهاراً عن هموم الوطن ، المهم أن تكون العملية نظيفة لا تسيل منها نقطة دماء واحدة ، ولا تخلف وراءها أى جراح .

تنظيم داخلى ، أو جماعة متطرفة ، تأخذ التعليمات من الخارج ، تتصل بهذه الإنسانه ، حيث تنقل الأوامر إلى باقى أفرع وعناصر التنظيم . ثم تحل كافة الأمور دفعة واحدة .

فرجت وكنت أظنها لا تفرج . جاءت الفكرة بسهولة . الاحتراف أفضل ألف مرة من الهواية . قرأت اسم القاضى الذى ينظر القضية . هبطت روى فى مواسير قدمى ، بينى وبين هذا القاضى « تاربايت » كما يقولون . لا معنى لحياتى إن لم أشرب من دمه ، واقطع كبده بين أسنانى . قضى على انتصارى من قبل عندما أصدر حكماً بالغاء الحكم الخاص بحرق الكتاب الفاسق الفاجر فى ميدان عام .

كنت أعتبرها ضربة العمر ، الأثر الذى سيحدثه الحكم مضمون ، سيهز

البلاد هزاً . سواء من الذين سيعجبون بالحكم ويفرحون به ويهللون له ، أو من المهاويس الذين سيقفون ضده . سيكتبون كلاماً كثيراً عن الحضارة والتاريخ والثقافة والأدب . كانت بعض المقالات قد بدأت تنشر وتقارن بينى وبين جنكيزخان وهولاكو ، وما جرى لمكتبة بغداد ، وحرقت مكتبة الإسكندرية .

كتابات تتحدث عن التاريخ القديم ، تعرض حوادث خارجة من بطون الكتب الصفراء . هل سيدرك أحد مغزى هذا الكلام الصعب ؟ عندما تطرق أحدهم إلى هتلر وموسوليني ، وكتب كلمتي النازية والفاشية ، قلت : فرجت . فركة كعب وتأتى الركلة الأخيرة إلى أعلى . ليس مهما الوسيلة ، أو الطريقة . المهم إلى أين تصل بنا الأمور ، النتائج هي الأساس .

يوم إصدار الحكم ، بالغاء مصادرة الكتاب ، هو اليوم الذي وقعت فيه الواقعة ، إنه النهار الفريد الذي ما يزال مستمراً . جاءت قضية هذه المرأة . آه من هاته النسوة اللاتي يكون من المستحيل معرفة اعمارهن الحقيقية . لا تعينى الاخريات . المهم بالنسبة لى : كيف أجعل هذه الإنسانه مغسولة من كل الاسرار والخفايا ؟ كيف أمحو مناطق الظلال فيها ، وانقلها إلى مساحات من الضوء المباح أو المستباح للجميع .

تعبت في جمع المعلومات ، والجرى وراء التحريات ، والسؤال عنها ، علاوة على الذين كلفتهم بالعمل معى في هذا الموضوع ، ومع هذا ، لم ينجح أحد في اخراجها من الغموض الضبابى ، الذى تقف في وسطه ، ما تحدث أحد عن أكلها وشرابها ، ولحظات نومها . اين ولدت ؟ وكيف عاشت ؟ ومن أين جاءت ؟ حتى اسمها الذى قالت في المحكمة . لا يوجد ما يؤكده أو ينفيه . اما باقى اسمها فلا يعرفه أحد .

إنسانه لها اسم وحيد ، لا ثانى ولا ثالث له . وقوف هذه الجنيه أمامى شق عمرى إلى شقين ، السنوات التى مضت ، والأيام القادمة . ان كانت هناك أيام قادمة أصلاً . ليست إنسيه أبداً . من بنات الجان هى . خرجت من البحر ، أو

طلعت من بطن الأرض السابعة ، أو نزلت من السماء السابعة . ولكنها ليست مخلوقة مثل كل البنَى آدميين الآخرين . معجونة من ماء العفاريت .

على أن أكتب ما توصلت إليه ، وهو ما يحوله السيد وكيل النيابة إلى الخطبه أو المرافعة . يوشك القلب أن يقفز خارج قفصه الصدرى ، ويرقص فى العراء . ألّهت وسط الكلمات ، ومن شدة الحماس ، أوشك أن أستمع إلى صوت دقات قلبى . أبحث عن لسانى الجاف . اكتشف أن ريقى كله قد جف .

أتوقف أثناء الكتابه ، أفكر فى الجملة التالية ، أتخيلها تنظر نحوى ، تصفعنى نظراتهما ، اشعر بالنظرة قوية على خدى ، أنا الآن فى الطريق من البيت إلى المحكمة ، هل لا بد من الاستماع إلى أقوالى ؟ إن الاستماع إلى أقوال محرر محضر الضبط فى الجنح جوازى ، ومرهون بإدارة المحكمة . وطلب دفاع المتهم ، وفى الغالب الأعم لا تسمع أقوالهم . ولكن من يدرينى ، ماذا قد يفعل هذا القاضى معى ؟ ان احتمال الاستماع إلى أقوالى خلال المحاكمة هو أصعب ما فى الأمر كله .

شاهد أنا . أقوالى ستكون شهادة إثبات للتهمة الموجهة إليها . الطريق من المحكمة إلى البيت ، طريق بدون نهاية . متعب أنا والسكه مزدحمة ، لا بد من التوقف على الرغم من العلامة الموضوعية على الزجاج الأمامى والزجاج الخلفى لسيارتى ، والتي تجعل منى مواطناً فوق العادة ، إنسان من الدرجة الأولى .

هيلمان الحكم على زجاج السيارة الأمامى ، وزجاجها الخلفى ، ومع هذا أتوقف فى الاشارات . لابد من موكب وموتوسيكل وزمامير وإخلاء الطريق قبل مرورى . لحظة عبور الطريق ، يصبح الشارع مساحة مبطنه ، على الجانبين ، بنفوس البشر ، الذين ينظرون إلى . انها الخطوة الأولى التى لا بد وان تتبعها خطوات أخرى . لا يعرف إلا الله سبحانه وتعالى عددها .

من أين يأتى الخمول ؟ ومن أى الأماكن يتسلل الملل ؟ طبقة من الرماد تغطى نظراتى . شىء غامض يزحف إلى حياتى ، عبر شوارعها الخلفية . أحاول -

مجرد محاولة - أن أقنع نفسى أننى إنسان سعيد . وإن كانت هذه السعادة ، فى
ابعد مكان عنى .

بجوارى الأوراق . فيها نتائج التحريات ، والحكاية كلها تدور فى الذهن ،
كلمة وراء كلمة ، وقصة تولد من قصة . ومع هذا ، أشعر انه لا قيمة للأمر كله .
معركة خسرتها قبل أن تبدأ . ما دامت التى تقف فى القفص ، تلك الكائنة
الخرافية . التى ترفض أن تتكلم . لم تنطق سوى ما نتصور جميعاً أنه اسمها
الأول .

لا يوجد معها ما يثبت شخصيتها ، وأوراقى خالية مما ينفى أو يثبت أى
شئ عنها . حتى لو أحضروا لها كماشه لكى تقلع الكلمات من فمها . لن تتكلم ،
لو فتحنا فمها بسكين حام لن تنطق . مصيبة . لابد وان من تعمل لحسابهم .
هم الذين أشاروا عليها بالصمت .

لن أخسر القضية ، بسبب صمت هذه المتأمرة فقط . ولكن لأن الذى يجلس
على منصة القضاء ، هو ذلك القاضى ، الذى لا أشك لحظة واحدة ، انه من
مجانين هذه الايام . كان من المفروض على أن أجمع المعلومات ، واقوم
بالتحريات عنه ، بدلاً من اللهاث وراء هذه الإنسانية .

لا قيمة لكل ما فعلته ، ما دام هذا الانسان هو الذى يجلس على المنصة ، وهو
الذى سيصدر الحكم . صدفة أم ترتيب غريب ؟ يبدو لى ، ان هذه الغزلان قد
خرجت من بين صفحات الكتاب إياه . أو ربما كانت هى التى تحكى ما يجرى
فيه من حوادث غريبة ، وحكايات عجيبة .

سيطاربنى هذا الكتاب كل ما تبقى لى من سنوات العمر ، كتاب مسكون
بهذا النوع من الناس الغجر والنور . فى كل قضية قد يخرج لى إنسان آخر من
سكان هذا الكتاب ، أى كتاب هذا ؟ أى كتاب ؟

أخشى هذه الليلة ، بعد ان أنام ، إن نمت ، أن يزورنى فى المنام مسرور
الساف [كيف يكون مسروراً ، هكذا إسمه على الأقل ، وعمله إرسال الناس إلى

الآخرة ١٩] يأتى فى المنام وبيده سيفه ، ويقطع رقبتى .
من يحمينى من سكان هذا الكتاب ؟ اين الزملاء والسلاح والحراسات
وترسانة القوانين والسجون والمعتقلات ؟ من الأفضل لى ، وحتى الإنتهاء من
نظر هذه القضية ، إلا أنام بمفردى أبداً .

صفحة فارغة

قصة نالشة من الكاتب

متى يأتى دوخان الشهرة ؟ متى ؟ جئت في معمعان زمن الكتبة الجارح ،
ذلك أن أيام الكتاب قد ولت هاربة ، ولن تعود أبدًا . كتبة من الخلف ، كتبة من
الأمام ، كتبة على اليمين ، كتبة على الشمال ، كتبة من فوق ، كتبة من تحت .

لا يبحث طابور الكتبة سوى عن التصاق جباه الكتبة بأحذية الحكام ، لا
يهم من هم . أى حكام والسلام . المهم أنهم حكام وكفي .

عندما جئت إلى هنا ، لأول مرة ، كنت أجرى وراء الكتاب الذي جمع لى فتات
الضوء المتناثر في أرجاء هذا الكون . كان مطلوبًا إحراقه في ميدان عام . جئت
بهدف وحيد ، هو الاطمئنان على أن عقلى لن يباع ، بعد حرق الكتاب - إن جرى
حرقه - في مزاد علنى .

كنت مرهقًا ، إرهاقًا لاشفاء منه ، مرهق من نفسي ومن العالم . حضرت لكي
أحل المسائل المعقدة . ولكنني عقدها - دون أن أدري - أكثر بحضورى .

وعندما حددت في العقدة ، إكتشفت إنها معقدة ، من حبال من الحرير .
أدمنت الحضور إلى هنا حتى رأيته . سألت نفسي ، ربما تقابلنا من قبل ، الروح
ولفت على الروح ، والقلب عانق القلب . ربما جرى اللقاء دون أن ندري . تمليت
وجهها . شربت حلاوة روحها حتى النقطة الأخيرة .

أوشكت أن أطير من الأرض السابعة ، حتى السماء السابعة ، كي أشرب من
ماء البحر السابع ، الذي لم يصله إنسان قبلي . ولن يصله إنسان بعدى .

قفزت روحى من النشوة . من قبل كنت أتحرك ، أتكلم ، أبوح كشخص طفع

به الكيلان . كيل الداخل ، وكيل الخارج . كنت أجرى وراء البريق ، الذي إكتشفت الآن ، إنه كان بريقًا كاذبًا وخادعًا .

كنت ، خلال رحلة الجرى والتعب واللهاث ، أشعر إنني مغمور بالامجاد . لكنني استمعت ، هذا اليوم ، إلى صوت يذيب حتى قلوب الحيوانات والجوارح والصخر والحجر .

سؤال القاضي الأول كان عن اسمها . شكرته في نفسي ، لأنه من الأحسن والأجمل أن يرتبط كسمها في ذهن وفي خيالي ، بإسمها ، وإلا كيف سأفكر فيها؟ نظرت إلى القاضي ، حاولت البحث عن الخيوط المشتركة بينه وبينها . كلاهما متعب . وجدتني أدخل من أوسع الأبواب ، إلى دائرة المقارنات الجهنمية ، بينها وبين القاضي وبينى . الدائرة التي تجمعنا ، دائرة ضيقة واسعة . تبدأ من قاعة المحكمة ، وتصل إلى الدوائر التي نتحرك فيها نحن الثلاثة .

ربما فكرت في صدر شبابي أن أكون قاضيًا ، وربما حلم القاضي ذات يوم مبكر من أيام عمره أن يمسك بالقلم . يكتب عن حيوات وحكاية الآخرين ، بدلاً من أن يحدد مصائرهم بالاحكام التي يخطها على الورق .

سؤال القاضي الأول ، لم يكن سؤاله الأخير . عند الرجل سجل لا ينتهي من الأسئلة . إنها نفس الأسئلة التي يوجهها إلى كل من يقف في هذا المكان . الغريب إنه لم يفرق بينها وبين الأخريات ، مع أنها من المستحيل أن تكون مثلهن .

عضضت على شفتي . يحاول الرجل ، أن يدرس بقدمه الغليظة في قلبها . ياله من قاس . يخيل إلى أنه قد يكون أقسى من جلس في هذا المكان . كانت تنطق بالكلمة الوحيدة التي رددتها في بطء شديد . نظرت إلى القاضي سألت نفسي : ألا يعرف هذا الرجل مدى التعاسة التي يسببها للإنسان إحتباس الكلمات بداخله؟!

ألم يجرب من قبل التعب والضنى والارهاق الذي تولده مرارة إصطدام الكلمات مع بعضها ؟ ربما لا يعرف ، لأنه لم يجرب ، قاض ، يجلس في مكانه

العالي . يطل على مخاليق الله المساكين ، ينطق فيحدد مصائر خلق الله ، بصورة شبه نهائية . كلمته لا ترد إلا من خلال محكمة أخرى .

وحتى تقول هذه المحكمة الأخرى كلمتها ، تمضى الأيام ، وتجرى الشهور ، وتتسرب السنوات . وإن كان يوم الحكومة بسنة ، فإن يوم المحكمة . بقرن كامل من الزمان .

أنقذ الموقف إنها ردت على كل الأسئلة بكلمة واحدة ، لابد وأنها إسمها . تجولت بنظراتى ببطء في المسافة بينها وبين القاضي ، الهواء حوله محمل بالرغبة في السؤال عن مصائر الناس ، والتسلل إلى شوارع حيواتهم الخلفية ، وتمزيق ما يسترهم وتركهم عرابا .

نظرت إليها من جديد ، سألت نفسي : هل يأتي يوم تكف فيه هذه الفاتنة عن إن تكون فاتنة ؟ وتتوقف الجميلة عن أن تكون جميلة ؟ هل يأتي زمان يهدد فيه صورتها المتألقة ، وحضورها المتوهج ، ذلك النسيان المبكر ؟

كانت القاعة تختنق من الحر ، القipzig أعمدة والغبار سحابة لا تتحرك ، أراها من مكاني ، وهي غارقة في الظلال ، تائهة في أبخرة الحر . حاولت أن أتبادل معها النظرات . بدوت وكأنني أحاول العثور خلف المظهر المرهق ، على ذكريات تائهة في زاوية ما من زوايا الذاكرة .

كان إسمها غريباً ، وكانت رموش عينيها معلقة على تخوم أشياء كثيرة مدهشة وغامضة . ربما جرت من قبل ، وقد تحدث في الأيام القادمة .

منذ أن لدغتنى علة قراءة أحرف الكلمات المكتوبة ، التي أخذت رموش الاعين إلى العلالي ، لم يفارقني هذا الوجد والحنين . عبد لأخبار الآخرين أنا . أعيش في شقة صغيرة . تغوص دوماً في الظلال المريحة . أكتب رسائل . اتحدث فيها عن أشياءي الجميلة ، والآمال الحميمة وحالات القلق . كان يتسلل إلى إحساس سرطاني بأن الحبل السرى الذي يربط الأشياء يوشك أن ينقطع .

رأيتها ، فقلت لنفسي ، على الفور . ها هي أدفا نساء الكون ، فضلاً عن أنها

أكثرهن جمالاً . من المؤكد أن لديها مزايا أخرى ، غير جمالها . همست لنفسي ، لا شيء يعادل أبداً ، دفء امرأة ، في هذا العالم .

ليلة الأمس ، كنت أجلس في شقتي الصغيرة التي هجرها ضوء النهار ، كنت أقول لنفسي ، إنه في اللحظات الحاسمة من العمر ، لا بد وأن توجد امرأة ما . تخرجني من الظلام إلى ضوء لا أعرفه .

لا ترسل هذا الضوء سوى امرأة ، كان من الصعب على ، الهروب من النظر إليها ، أبعد عيني عنها ، لكي تعودا إليها من جديد رغماً عني . نظرت إليها لا أدري للمرة الكم . قلت لنفسي الكتابة عملية مهيجة للشهوة .

حاولت من جديد ، أن أربط بينها - وهي تقف في القفص - وبين القاضي ، الذي يجلس على المقعد الرئيسي ، الذي يتوسط المنصة ، وبينني . عندما سأجلس ، لكي أكتب عنا نحن نحن الثلاثة . سأبدأ بهذه الجملة :
- كلنا رهائن أحلامنا .

إنسالت الخواطر في عقل بالي . لا يوجد رجال عاجزون ، في هذا العالم . ولكن توجد فقط نساء لا يعرفن كيف يخرجن رجالهن من ورطتهم ، بأقل الخسائر الممكنة .

سألت نفسي عن بركات البدايات . المرة الأولى ، التي تصل بالإنسان دوماً إلى عنان السماء ، وبعدها يتحول الأمر إلى خلاعة مملة ومرفوضة . إنه الحنين إلى البكارة ، خاصة وأن الحياة تجعل الإنسان أقل براءة بصورة تدريجية .

إنسانة عامرة بشعف جارف للحياة ، لا تعطى نفسها بالبراءة القديمة ، حتى لو أرادت أن تخرج نفسها - ولو بالقوة - من أحرف جملة مكررة ومعادة . كانت تريد أن تكون . تبحث عن صداقات يملؤها التواطؤ .

في هذه المرأة نزوع خارق وجنوني ، لأن تكون شهيدة تحبس نفسها في حالة إنكتمام مطلقة . تعاني من قلق مفرط ، ومن نفاذ صبر . تبدو في انتظار ، ذلك القادر على اكتشاف المناطق المدارية في روحها .

متى يأتى دوخان الشهرة ؟ اضحك من أحلامي ، الأفضل لي هو أن اتساءل:
متى تشتبك نظراتى ونظراتها ، في لقاء احلم أن يطول حتى آخر لحظة من
العمر ؟ .

شعرها مرشوش بالليل ، عيناها لم يتجول فيهما الخوف قط . هل اخرج من
هذا المكان ، وأبدأ في النظر إلى الأمر ، باعتباره واحداً من كوابيس هذا الزمان
العصيب ؟ وتتحول الفاتنة إلى واحدة من أكثر الجميلات اللاتي ضعن منى في
الطريق ؟ وتسبب لي دائماً حالة من التوتر المجنون ؟

أصل إلى تخوم الهذيان ، أقوم ، أتمشى في القاعة المزدحمة ، لا توجد أمامي
فرصة الآن لكي أمارس هواية التسكع الجميل ، والتحديق في وجوه الناس ،
والذهاب والإياب ببطاء ، والرواح والمجىء على مهل .

احترفت الكتابة ، وعندما أصبحت الكلمة قنطرة إلى لقمة العيش ، أدركت
أنني وقعت في الفخ ، وكانت تلك مصيبة العمر كله . الكلمات ، إنها قضائي
وقدرى . الكلمات كانت معشوقتي السرية ، التي اكتشفت أنه ليس أمامي سوى
إدمانها طوال عمري . وجع ؟ ربما . ضنى ؟ قد يكون . عذاب ؟ جائز ، ولكن
في كل هذه الأحوال ، كانت الكتابة فعلاً طافحاً بالسرور والبهجة .

حاولت أن أصون حياتي الخاصة بعيداً عن الابتذال اليومي الرهيب ، بعد أن
أصبحت دقائق وجودي قابلة للاختراق ، ما أحταجه هو الصمت ، والبعد عن
الآخرين . سيكون عنوان ما أكتبه هو « غزلان تصعد إلى السماء » . لا سيكون
العنوان « غزال البر » . إنه ليس عنواناً جيداً . سيصبح العنوان : مهرة الريح . لا
. سأكتب : فرس النبی . هكذا أنا . كانوا يقولون عنى في طفولتي : حجة البليد ،
مسح السبورة . وهكذا أنا الآن . ما إن أقف أمام أى طريق جديد ، حتى أبدأ في
البحث عن العقبات ، وافتش عن العراقيل . أتوقف قبل أن أبدأ ، لن تنقذنى
سوى تلك الكتابة الفريدة التي لا تكتب سوى بحبر القلب ، أو القدرة على
الكتابة على سطح الماء ، والتدوين على وجه الريح .

أكتشفت في جلستي في المحكمة ، في هذا اليوم العصيب ، إنني لم اتمكن من تجنب بعض الأخطاء الصغيرة ، والحقائق الباهتة . ولم أستطع أن أتجنب فقد ونس الرفاق . ودفع الأصدقاء .

كل ما في العمر ، انقلب رأسًا على عقب ، كما يقولون في الكتابات الرديئة التي تسود في هذا الزمان . نمت وصحوت لأجد أن الأعداء من المفروض إن يصبحوا أصدقاء ، وأن الأشقاء من المحتم والضروري أن تفصلني عنهم بحار من الدماء . لدرجة أنه أصبح الاستمرار فيما كان من رابع المستحيالات .

لكي يحيا الإنسان في هذا الزمان ، لابد وأن يعلو كتفيه رأسان . رأس له ورأس عليه . ولا مفر من الاستماع بأربعة آذان . وعندما يحاول أن يرى ، لابد له من مائة عين . وإن فكر في النطق ، لن يستطيع ذلك إلا من خلال ألف لسان ، وياويله أن كانت اللسان التي ضده ، أكثر من تلك التي معه ، مع أنها جميعًا تتحرك في فمة . وعند الكتابة من يقدر على الإمساك بالاقلام التي امامه مرة واحدة . ويبد واحدة . ويكتب بها جميعًا .

أتخندق ، لا مفر من الخندقة . ربما كانت الخندقة هي الخلاص الوحيد اليوم . بدأت حالة من الانطفاء تتسلل إلى حماسي . لا أعرف لماذا جئت اليوم إلى هذه المحكمة ؟ اندفاعات ؟ مشروعات ؟ أحلام ؟ خيبات آمال ؟ حكايا ينسال منها الحزن ؟ كل ما حولي يحرضني على الكسل ، يدفعني لأن أحاول العوم فوق شواشي الأحلام .

يفزعني أن الحياة تنزلق في الأبدية ، دون أن تترك أى أثر . أمشى وسط حالة من التفاسح والتشديق بكلمات كاذبة . إنه التلاسن اليومي الذي لا يوصل إلى أى شيء البتة .

أقضى النهار باحثًا عن لحظة من دفع الفرع . انظر إلى الناس ، يبدوون وكأنهم ملفوفون في ملابسهم ، مثل الموتى وسط الاكفان ، محشورون في

بهارج عديمة القيمة . الناس من حولي يتحاسدون ، ويتناقرون ويتقاتلون
حول أشياء تافهة ولا قيمة لها .

تحاول كل هذه التفاصيل القاتلة ، أن تنسيني المكان الذي رأيت فيه النور
لأول مرة . تتوه من الذاكرة أول حصاه رميتها في شقاوة الطفولة الأولى .

انزل من البيت ، اتسكع في المدينة الكبيرة ، أمشي بدون هدف ، أبحث عن أى
دزيعه للتسكع . حتى جئت إلى هنا . فأدركت أنه في هذا المكان ، يمكنني أن المس
تعاسة الذين تؤرقني حيواتهم ومصائرهم .

كنت أحاول الخروج من جلدى ، والتحديد في الآخرين والمرثيات والأشياء .
حتى أحاول صيانة روحى من اليأس وحماية قلبي من التحجر .

خرجت من باب المحكمة ، لفحنى هواء الشارع ، كأن رأسي مليئاً بالفراغ .
سألت نفسي ، وما أكثر ما أسألها وأحدثها وأناجيها : متى أتمكن من الطيران ؟
ولو لمرة واحدة أطيّر ، قد تكون المرة الأولى والأخيرة . أطيّر في الضوء والشارع
وسط الناس ، وأن فشلت في الطيران . تصبح قضيتي . هي كيف انتقل إلى
الهامش في صمت تام . كيف ؟!

سبحت في الأسطر ، وعمت في قيعان أحرف الكلمات ، ولا جدوى ، طرت إلى
الجنة ولا أمل . صعدت واستحمت في ماء القمر ولا شيء سوى خيبة الأمل .
أشعر بألم الاحتباس عندما تتعارك الكلمة مع الكلمة ، من أجل الخروج .
وهذا يجعلنى أتعس إنسان في هذا العالم .

خلاصى الوحيد ، هو أن أكتب قصة غزلان ، التي لا أعرف منها حرفاً واحداً .
ليس مهما أن تعرف ، المهم أن تشعر ، أن تجيش النفس بهذا الشجن الجميل ،
الذي يأتي بعده طوفان ولادة الكلمات .

سأكتب القصة ، فهل يأتى بعدها دوخان الشهرة اللذيذ ؟ أبحث عن
العنوان ، كلماته طويلة . غزلان . أضيف إليها العبارة الآتية : آخر أرض حنت

إليها الطيور المهاجرة ، أسطر كلماتي على الشوارع المعفرة بالثرثرة والهوان . ها هي الكلمات الأولى من القصة .

أتوقف وأسأل من كان يمشى بجواري :

- أين كان يختبئ لي كل هذا ؟

لم يرد على الذي سألته . ضرب كفًا بكف ومضي .

قلت :

- ياليت الذي جرى ما كان .

وقف ونظر أنى من بعيد :

- وكلمة ياريت عمرها ما عمرت بيت .

كتبت الجملة الأولى ، ولا أعرف أى كلمات مجنونة قد تأتي بعدها .

قصة رابعة عن المحامي

حضرات القضاة

حضرات المستشارين ..

أنا المحامي الذى تطوع لكى يترافع عن المتهمه التى لم توكل محامياً للدفاع عنها ، وعندما سألتهمونها - كما هو ثابت فى ملف القضية - أن كان معها محام لكى يترافع عنها . رفضت أن تجيب . قالت ما تعتقدون إنه اسمها . الذى شكل جميع إجاباتها ، على كل سؤال وجهتموه إليها .

فى مصر مثل شعبى يقول : من ليس له كبير . عليه أن يشتري لنفسه كبيراً . وأسواق البيع والشراء ملأى بالكبار والصغار . ومن حرم من الأب ، يمكنه أن يشتري أباً له . من أى مزاد علنى أو سرى .

وهنا يمكننا أن نطبق هذا المثل ونقول : من لم يحضر محامياً يتكلم بلسانه ، على المحكمة أن تنتدب له محام ، تدفع له أجره فى النهاية ، وذلك حسب نص مواد قانون الجنايات . وإن لم تنتدب المحكمة محام ، يبقى المتهم دون لسان يتكلم نيابه عنه .

ولأنه لم ينتدبنى أحد ، من أجل أن اترافع عن هذه الإنسانه ، ولأنه لا توجد قضايا أخرى فى يدي ، قررت أن أترافع عنها متطوعاً .

إنفردت بها أكثر من مرة . طرحت عليها كل الأسئلة التى أعرفها ، وتلك التى لها أعرفها . حتى أصل إلى أعماقها ، ولا فائدة . كانت المحكمة أسعد حظاً منى ، لأنها ردت عليها بكلمة واحدة . أما أنا فلم أستمع سوى لصوتى . وبعده كان يأتى الصمت .

وعندما وصل الحاحى إلى أقصى مداه . ردت على بدمعتين كبيرتين ، تحولتا إلى خطين يلمعان على خديها في رحلة هابطة من أعلى إلى أسفل . شاهدت لمعان الدمعتين ، وأدركت أنه لو نجح المصريون في إستنطاق أبو الهول ، وإخراجه من صمته الأبدى ، وجعله يقول ، ولو كلمة واحدة . سأنجح أنا في أن أسمع صوتها. بصرف النظر أن كان الذى سيخرج من فمها سيكون كلمة أو أقل .

لا أستطيع أن أقول عنها موكلتى ، فهى لم توكلنى . وإن كانت تبدو أنها ليست محتاجة لمن يترافع عنها ، فالأمر يختلف معى ، فانا فى أمس الحاجة لأن أترافع عنها .

محام صغير أنا . جزء من دنيا الصراع بالاكثاف ، والحرب بالوجاهة فى الملابس . وتحديد القيمة بعدد من يمشون وراء هذا المحامى أو ذاك من الكتبة ، والمحامين تحت التمرين ، والسكرتارية من البنات خارقات الجمال والموظفين. عالم قاس لا يعرف الرحمة ، هناك من معه مائة قضية منظورة كلها فى يوم واحد، فى محاكم متناثرة من أسوان إلى الإسكندرية ، ومن لا يجد قضية منذ سنة مضت مثلى .

فرحت بالقضية . جئت إلى هنا فى الصباح الباكر بعدة الشغل ملفوفة فى ورق شفاف ، والورق داخل حقيبته سمسونايت لها أرقام سرية .

وعندما يبدأ نظر القضية ، ما أسهل أن أضع الروب الأسود فوق القميص الأبيض ، وأربط ربطة العنق ، ولكن بدون مرآة ، وأصبح محامياً . أحد رجال القضاء الواقف على قدميه ، ثم انطق بالنداءين ، اللذين يخرجان من حبه القلب، من طول إحتباسهما فى أعماقى أياماً وشهوراً وربما سنوات .

قبل أن انطق بهما اليوم ، لأول مرة ، وأتمنى الا تكون الأخيرة .

عندما تحطمت جميع محاولاتي على صخرة صمتها ، قرأت ملف القضية بكل عناية . دونت ملاحظات من محضر الضبط ، وأوراق التحريات ، ووصف

وقيد النيابة ، واقوال الشهود ، وشهادة الشخص الذى ضبط معها .

كان لدى الوقت الكافى ، أنا فاضى ، والمثل يقول : معذرة يا سيادة القاضى .
المثل حبك . خوفاً من هيبة المحكمة سأعدل المثل . إنه يقول . الفاضى يعمل
محامياً . لم اکتف بقراءة الأوراق . ذهبت إلى العنوان الوارد فى الأوراق ، بإعتبار
أن الواقعة جرت فيه . سألت عن أطراف القضية الأخرى . وجاءت المفاجأة
الأولى . قالوا لى ، لا توجد إنسانه تحمل هذا الاسم الوحيد .

لجأت إلى صفاتها الواردة فى الأوراق . قلت لهم عليها . وجاءت الإجابة
بالانكار أيضاً . قلت لنفسى أن صاحب الشقة ، ومالك العقار ، والشخص
الوسيط لهم مصلحة فى الانكار .

على بالذهاب إلى من كان معها . الذى يعد فى هذه القضية بمثابة شاهد
إثبات . مع انه من المفروض على البحث عن شهود للنفى ، فذلك من مصلحة
موكلتى ، أو التى من المفروض انها موكلتى .

إكتشفت أن العنوان الذى قاله فى التحقيق عنوان وهمى ، أنا محام ، ومن
المفروض أننى كتلة من الذكاء . العب بالقوانين كما يلعب الحواة بالبيضة
والحجر . عدت إلى رقم بطاقته العائلية ، من الصعب أن يزور بياناتها . رجال
الشرطة ينقلون هذه البيانات بأنفسهم من البطاقات . وأن زور فى أى من بيانات
البطاقة ، أو الصورة ، يكون من السهل إكتشاف هذا التزوير . وتصبح قضية
جديدة . تجعل شهادته فى هذه القضية باطلة . ان كان رجل الشرطة قد نقل
البيانات فقط . فسأقوم بتحقيق صدقها فى أرض الواقع . وإن وجدت أى كذب
أو تزوير ، نخرجه من قضية موكلتى ، وندخله فى قضية أخرى .

وصلت إليه بعد عناء وتعب . أقسم لى أن الحكاية لم تحدث من أولها وحتى
آخرها . قال لى إن وجوده فى هذه القضية يسعده . لسبب بسيط ، أنه يعيش
مطاردا بشائعه انه عنين . أخرج أوراقاً رسميه كانت فى جيبه . تثبت هذا . أكد لى

أنه لم يسع من أجل استخراجها . لا يوجد رجل يفعل هذا . تلك الأوراق استخرجتها زوجته ، أو من كانت زوجته ، وهربت من بيت الزوجية ، ورفعت عليه قضية تطلب الطلاق .

فجأة أمسك بى . قال لى إن القضية الجديدة ، مثل القشه التى تبدو للغريق فى عرض البحر قبل أن يغرق . بهذه القضية الجديدة ، التى لم تكن تخطر له على بال ، يمكنه شطب القضية القديمة . وصدق هذه القضية ، دليله الوحيد ، لى يخرج من الحكاية الأولى .

طلبت منه الحضور إلى المحكمة ، وأصر هو على أن أذهب معه إلى المحكمة الأخرى التى تنظر قضية طلب زوجته ، أو التى كانت زوجته ، الطلاق منه . دخلنا فى مناقشة عقيمة عن أيهما يأتى أولاً . البيضة أم الكتكوت ، أثبات رجولته أولاً . أم براءة هذه الإنسانه . تأكدت أنه لو حضر إلى هنا ، سيصبح شاهد اثبات من الطراز الأول ، حيث إن له مصلحة أساسية فى ذلك . نجاحه فى القيام بهذا الدور أمامكم ، سيخرجه من القضية التى هناك .

تشبث بشكل جنونى ، بأن اثبات رجولته ، يسبق براءة هذه الإنسانه ، التى لا يعرفها . رفض أن يتزحزح عن موقفه ، مع أن تاريخ نظر قضية رجولته ، يأتى بعد شهور من نظر قضية براءة هذه الإنسانه . قال لى بوقاحة « مصالح » اكمل : « لكل منا أولوياته يا أخى » . قلت لنفسى : لا فائدة منه أبداً .

تسللت هارباً منه وعدت . تركته مثلماً تخرج الشعرة من العجين . حتى دون أن اترك أى أثر لوجودى عنده . أو طريقه لى يستدل بها على بعد ذلك .

قال لى الرجل ، أن هذه الإنسانه مظلومة ، ومن فى هذا العالم لا يعد مظلوماً ؟ خلق الإنسان ليظلم ، لى يقع عليه ظلم الآخرين . وهذه الصياغة من عندى طبعاً ، وليست من عنديات الرجل .

قدم لى صفقه ، فى زمن الصفقات . قال إن المرأة ، مادامت دليل رجولته الوحيد ، فهو مستعد لأن يأتى ويشهد ضدها . ثم يتزوجها فى نفس الجلسة .

وهكذا يغسل نفسه من عار العجز ، ويبرئها من تهمة الدعارة التى لم يمارسها معها . ويخرجان معًا من المحكمة ، عريس وعروسة ، مع أن مثل هذه الحلول لا نراها سوى فى أفلام السينما فقط .

قال لى إن الشرط نور ، هو مستعد للحضور ، بشرط أن أضمن له موافقتها على الزواج الفورى منه . ما دامت متهمه فى قضية دعارة ، فلا بد وأنها جميلة ، وطالما أنها متهمه بالاحتراف . إذن فهى تعرف من الفنون ، ما يضمن له خروجه من أزمته . الصفقة مضمونة بالنسبة للطرفين معًا .

أنا الآن فى موقف لا أحسد عليه . هل أترافع عنها أم عن نفسى . لقد قمت بتحضير مواد وبنود ، من أجل الدفاع عن هذه الإنسانه ، التى يوجد يقين لا يقبل الشك لدينا جميعًا ، إنها مظلومة . ابتداء من القفص ، الذى تقف فيه ، وصولاً إلى المنصة .

مظلوم أنا الآخر . عندما كنت أجلس على مقعد دارس الحقوق . كنت اسمع من أساتذتى ، ومن زملائى عن محامى القطاع العام ، ومحامى المكاتب . الأول موظف ، والثانى هو القضاء الواقف .

رفضت الوظيفة بدون مناقشة . انتفخت عروق رقبتى ، وطق لى أكثر من عرق ، وأنا أقول إن المحاماة رسالة ، وليست وظيفة ، ولن تكون . من يقبل الوظيفة ، يكون قد كسب المرتب الثابت ، أول كل شهر ، وخسر فى نفس الوقت شرف الرسالة ، الذى لم يعد يستحقه أبداً .

من يقبض مرتبًا أول كل شهر ، ويجلس على مكتب ويوقع فى دفتر الحضور والانصراف ، كل يوم ، مرة بالحضور ، ومرة أخرى بالانصراف ، لا يستحق أن يحمل هذا اللقب المقدس : محام .

ما إن تخرجت ، وصدقوننى ، لم تراودنى للحظة واحدة ، أحلام النيابة والقضاء . وهذا ليس طعنًا فى سلطة من أهم سلطات الدولة . ولكن للناس فيما

يعشقون مذاهب ولولا إختلاف الأذواق لبارت الوظائف ، وضمرت الأدوار ، وتقلصت أشكال العمل .

أعود وأقول ، إننى بعد تخرجى ، اكتشفت أن أفضل ما يمكن أن أعمله بالشهادة ، هو أن أضعها فى إطار مذهب ، لكى تعلق فى صالون البيت .

وعندما قلبت الأمر فى ذهنى ، جاءت الاكتشافات الغريبة . الاكتشاف الأول ، أن المبلغ الذى سأدفعه فى عملية البروزة ، أنا فى أمس الحاجة إليه . والثانى أنه لا يوجد فى بيتنا صالون من الاساس حتى أعلق فيه البرواز .

عند البحث عن العمل ، بعد أن حاولت نسيان ما قلته على مقاعد الدراسة ، إكتشفت أن القوى العاملة ، وضعت على مكاتبها لافتة: مغلق للتحسينات . أو لنكن أكثر دقة : مغلق لإعادة النظر .

المكاتب الخاصة أصبح عدد المحامين تحت التمرين فيها ، أكثر من عدد الكراسى والزيائن والموظفين . ويكثر العدد ، كلما ازدادت نجومية الأستاذ .

قبل أن أتكعبل فى هذه القضية ، كنت أكل بعض سندوتشات الفول والطعمية ، التى اشتريتها جاهزة من إحدى المحلات . وفى الوقت الذى حاولت فيه إيهام نفسى أن الطعام لذيذ . وقعت عينى على خبر فى الورق الذى كانت السندوتشات ملفوفة فيه .

الخبر كان عن محام حصل على مليون دولار ، نظير إبرام عقد تأسيس شركة إستثمارية أجنبية . وأنه حصل على أتعابه بالعملة الصعبة .

قضيت ليلتى ساهراً حتى الصباح ، أحسب ما يعادل هذا المبلغ بالجنيه المصرى . مرة فى حالة تغييره فى البنوك ،

ومرة أخرى ، أن غيره فى السوق السوداء . وفى المرة الثالثة أحسب الفارق بين تغيير البنك وتغيير اقتصاد الظل . كان جزء من الفارق ، قادر على حل مشاكل جيلى من المحامين الشبان بضربة واحدة .

لا أعرف لماذا أقول هذا الكلام ؟ هل أترافع عن نفسى أم أترافع عن هذه

الإنسانة ؟ مظلالم كلنا إيها السادة ، تداخل الظلم في الظلم . ما أكثر المظلومين . هل أقول . وما أقل الظالمين ؟ لا . سأقول . وما أكثر الظالمين أيضًا .

أعود إلى موضوع موكلتى . أمامكم احتمالات محددة ، أعرضها عليكم . وما نجده أكثر مناسبة . نلجأ إليه . هل أحضر شاهد الإثبات ، الذى يسعى إلى شطب قضية إثبات رجولته ، من محكمة أخرى ، حتى لو سجن هذه المظلومة ؟

المشكلة أننى لا أضمن أنه قد يتزوجها ، باعتبار أنه يرى أن كل الناس مظلالم ، وقضيتها لا تحرك ضميرة ، إن كان له ضمير أصلا . ثم أنه لو تشاهم ، وطلب زواجها ، هل توافق هذه الصامته الأبدية على الزواج منه . مع أننا لا نعرف كيف تفكر ولا فى أى اتجاه . ثم قد تكون متزوجة أصلا .

الاحتمال الثانى ، أن أتحوّل أنا من موقف المحامى إلى شاهد إثبات . اثبت لكم عدم وجود قضية من الأصل لأن الحدث لم يقع . وفى هذه الحالة ، سأكون أنا الخاسر الوحيد .

لأن الشهود ، سواء أكانوا شهود نفى أو شهود إثبات ، لا يحصلون على أى أجر من المحكمة لقاء شهاداتهم . شهود الزور ، الشهود المعروضون على أبواب المحاكم للإيجار ، فقط هم الذين يحصلون على أجور من أصحاب المصلحة فى الشهادة ، وليس من المحكمة . وأنا مستعد لأن أفقد أجرة الشهادة ، لقاء براءة هذه الإنسانة ، التى لدى يقين لا يقبل الشك فى براءتها .

وإن كنت أشك أن شهادتى يمكن أن تقود إلى البراءة . ربما يكون ممثل الادعاء ، فى الطرف الآخر ، لديه مفاجآت ، لم أضعها فى حسابى .

فى كل مرة تصدر المحكمة حكماً . وأنا هذه المرة أسهل الأمور على هيئة المحكمة الموقرة ، ويصبح المطلوب هو الاختيار بين الاحتمالات ، وليس أن تحكم ، والاختيار أسهل ألف مرة من الحكم .

صفحة فارغة

أنين خارج خطبة المرافعة

كان بودى أن أبدأ المرافعة هكذا :

كيف تأتى غيبوبة المال ؟ متى يحط على الدوخان اللذيذ الذى تخلقه عملية
عد الأموال ؟

يبدو أننى أنا الذى سأدوخ من كثرة طرح هذا السؤال على نفسى ولا
جدوى. وعندما يتوقف الدوخان ، لن يأتى سوى الجنون نفسه . المال يعرف
من البداية من يحضر اليهم ، وأنا لست واحداً من هؤلاء ، ولن أكون .
لن أنظر إلى فوق ، فمن يفعل هذا قد تنكسر رقبتة ، ولن أحاول الصعود إلى
السماء بدون سلالم ، حتى لا أقع فيصبح أكبر جزء منى ، فى حجم حبة العدس
كانت نفس المحكمة تنظر قضية أخرى . يلهث وراءها الاعلام من كل جانب .
قليل البخت أنا . فلا بد وأن يكون مصير أى قضية أمسك بها هو الإهمال .
أما القضية الأخرى ، عند نظرها توجد كاميرات ، فلاشات ، أجهزة تسجيل ،
تصطاد حتى الهمسات الطائفة فى الهواء . وأقلام تدون على الورق أى كلمة
ينطق بها أى طرف من أطراف القضية .

رئيس النيابة الذى طالب بحرق الكتاب الجميل فى ميدان عام ، كان ينطق
بالكلمات وهو يفكر فى المجد القادم ، كان يتخيل ، فى ذهنه ، مكتب النائب العام ،
وليس أقل منه .

والضابط الذى جمع التحريات عن الكتاب ، الذى ساعدنا على أن يكون لنا
خيال . جاء إلى المحكمة مرتدياً بدلة ملكى ، والضباط يفعلون هذا عندما
يفكرون فى المناصب العليا .

فكرت ، لماذا وقعت في قرابيزى هذه القضية ، التى لا يهتم بها أحد ؟ سألت
نفسى : لماذا لم أجد لى مكاناً في قضية المجد والأضواء ؟ هناك طابور من
المحامين ، يبدأ من الكبار جداً ، من آل كسابونى المحاماه المصرية ويصل إلى
الصغار من أمثالى . الذين يعفون حول القضية ، مثل الذباب الذى يتكاثر حول
قطعة من الحلوى .

عالم من حيتان المحامين ، دنيا صورات القضاء الواقف . لا مكان لى بينهم .
يكفيننى الوقوف مع هذه النائية كالنجوم ، المقلوعة من الذاكرة ، الهاربة مثل
أكثر الأيام بهاءً وجمالاً . يكفيننى التدحرج بين مواد القانون ، بحثاً عن براءتها
المستحيلة .

كانوا يقولون في طفولتى : عمدة في عزبة منسية أم عسكرى داورية ليلية في
العاصمة ؟ أنا اخترت وانتهى الأمر . سألقي عمدة عزبة غزلان التى توجد على
شمال السما ، بدلاً من أصبح خفيراً من متاهة هذا الكتاب الألفى الذى هز الدنيا
كلها .

وبدلاً من أن يحاول المثقفون معرفة ، من الذى ألف وأبدع وخلق كل هذا
الجمال وكل هذا البهاء . تطالب النيابة بحرقه في ميدان عام . مع أنهم لا يدركون
أن الحرائق تقف خلف الأبواب في انتظار أن يندلع الحريق الأول ، ومنه سيبدأ
الاشتعال العام .

وسيقدمون هم خدمة كبرى . عندما يبدأون بأنفسهم بإشعال الحريق رقم
واحد . لأن الاشتعال سيكون في هذه الحالة بعود كبريت أميرى ، من عهدة
خزائن الدولة .

قصة خامسة - ولن تكون الأخيرة - من القاضى

لا يمكن أن يحكى أبداً . ما جرى لا يقال فى كلمات . كانت المحكمة عبارة عن مساحة من الغبار . كان متعباً فى هذا اليوم أكثر من أى يوم آخر . كان ينظر إلى عاصفة الوجوه ، ويعوم فى بحار اللغظ والكلمات . يتذكر هدوء البندر الذى يعيش فيه ، حيث يستمع الإنسان حتى لتنهيده الموتى ، ويسمع صوت صمته ، ويخيل إليه أحياناً أن صفير اذنيه يحاصره . رآها ، شعر أنها أكثر إنسان تفاهم معه . وأن الاتصال الذى أجراه معها ، تسلل إلى كيانه كله . عبر منابت الشعر ، ومنافذ الجلد ، رغم إنه لم يكن قد تحدث معها بصورة خاصة .

سألها وأجابت . القى عليها الأسئلة المعتادة فى مثل حالتها . إستمع إلى إجاباتها . شاهد كاتب الجلسة وهو يدون الأسئلة والإجابات معاً . ولد من إجاباتها - كما يحدث عادة - أسئلة جديدة ، وهكذا .

فى ليلته الأولى ، بعد هذه الجلسة ، جافاه النوم . من قبل كانت مشكلته التى تؤرقه أحياناً ، هى الحكم الذى سينطق به . بصرف النظر عن الإنسان الذى سيصدر عليه الحكم . هذه المرة يعنيه الإنسان نفسه ، الذى تدور حوله القضية . الدم واللحم والأعصاب والمشاعر ، أكثر من أى شىء آخر .

تعب كثيراً حتى تمكن من اصطياذ لحظات نوم ، تخاطيف ، وفى كل مرة ، ما إن يأتية النوم ، حتى تحضر معه ، يرن صوتها وقطرات الدموع تنز منه .

- تعرفنى ١٩ .

أوشك أن يهز رأسه بنعم ، فكر أن يهزها بلا . لكن دموعه سبقت كلماته ،

لأول مرة في عمره كله ، وهى جاوبته بشهقه . وعندما وصلت دموعه الدافئة ، إلى شعر ذقنه النابت ، وتاهت بين شعيرات شاربه الخشن ، واستقرت عند شاطئ شفته العليا واكتشف أنها مالحة الطعم .

قال لنفسه ، لابد وأن هناك ، سكرًا وشهدًا مذابين في قطرات دموعها .

سألته من جديد :

- رأيتى من قبل ١٩ .

تعجب لأن الحلم يجرى في البندر الذى يعيش فيه ، تساءل : لماذا اختارت مكانًا بعيدًا عن المحكمة لكى تحضر له فيه ؟ ! هل يعنى ذلك رفضها لكل ما يجرى في المحكمة ؟ ! بدا له البندر ، فى الحلم ، مدينة أشباح .

لكن الكروان جاء فى آخر الحلم . نقش صفحة الفجر بصوته الجميل ، وملاً الهدوء بنداءاته ، تلك التى لا يرد عليها أحد . وهكذا جاءه الاكتشاف الأول .

فى هذه المحكمة الكبيرة ، التى تتوسط المدينة المهولة ، أصبح من الصعب عليه ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يبتعد عن محاولة تصيد أحزان الناس .

يسافر القاضى كل صباح ، ينزل من بيته فى السادسة صباحًا . يرى الهياكل العظمية التى يسميها الناس تجاوزًا بالكلاب . يتجنب أن يدوسها . خوفًا عليها من قدميه . وليس خشية من أن تعضه . حتى كلاب بلدته لم تعد كلابًا .

يتبادل تحية الصباح ، مع صاحب عربة الفول المدمس والبليلة ، الذى يكون قد وصل لتوه ، إلى مكان وقوفه اليومي ، يركن العربة ، ويشعل وابلور الجاز . قبل أن يقترب منه القاضى ، يقف منعم بائح الفول « نهارنا فل » ، يقولها كل يوم ، ورغم أن القاضى ، لا يشتري منه الفول ، سوى يوم الجمعة إلا إنه يردف: « يجعل إستفتاحنا نادى » .

أما بائع اللبن . الذى يركن عجلته فى ذلك الوقت إلى الرصيف ، عليها قسط

كبير من ناحية الشمال ، وقسط آخر في نفس الحجم من ناحية اليمين . وفي يسراه قسط صغير ، وفي يمناه مكيال اللبن . يرفع يده التي تمسك بالمكيال :

- صباح اللبن الحليب .

يقولها وهو يحاول الابتعاد عن القاضي ، يخافه ويخشاه من بعيد لبعيد . وإن كان القاضي يتمنى لو عرف السبب في هذا الخوف وتلك الخشية .

ثالث الذين يقابلهم ، هو الدرويش ، مجذوب المساكن الشعبية ، الذي لا يعرف أحد متى ولا كيف ينام . المجذوب لا يخاف القاضي ولا يخشاه .

هو الوحيد في البندر من الذين يعرفهم القاضي ، الذي يقول ويكرر إنه لا يخاف ولا يخشى سوى رافع السماء من غير عمد . لأنه لن يقبض الأرواح الا من خلقها .

بعد أن يمر القاضي عليه ، يقول والكلمات تتناوب مع التفتقات في فمه :

- احكم بالعدل يا قاضي .

يتوقف ، ثم يصيح بعزم الصوت :

- قدماك مظالم .

يبتسم القاضي في نفسه ، يوشك أن يتوقف ويقسم له ، إنه أن كان في البر كله مظلوم واحد ، فهو القاضي نفسه .

يصل إلى محطة القطار ، يخرج الابونية من محفظته ، يقول لنفسه : وهكذا تركنا المدينة المنسية . ويبدأ رحلة كل يوم .

يخرج القطار من البندر ، من بحار الالفة الجميلة ، ينظر إلى النعناع المزروع فوق أسطح البيوت . يبدو له الهدوء كغيمة ، تتوه فيه الخطوات المتناثرة ويمتص حتى الاصوات .

لكن الاصوات تأتيه من قلب الروح ، تلمم فتافيت القلب . يرى النهر القريب . يخيل إليه أنه نهر من السكر ، يشاهد إزرقاق السماء في هذا الوقت

متفوقاً على نفسه . يتخيل الماء البارد والبالغ حد الصفاء الذى يجرى جرياناً سريعاً . يجعل ذاكرته ترتعش .

ينظر حوله ، حقول شديدة الخضرة ، تبدو وكأنها نزعّت من صورة أخذت لجزء من الجنة .

يرى الناس فى القرى القريبة من سكة القطار ، الفلاحون فى هذا الوقت ينسجون الغيوم من أحلامهم . ويملأونها من ماء أعينهم . وعندما ينزل مطر السماء على الأرض يتحولون إلى أطياف تهوم فى الهواء .

يمر سريعاً على عزب الفلاحين ، يواصل رحلته اليومية ورأسه ملئ بالضباب . جاءت الترقية ومعها الشحطه والبحترة على سكك البلاد . لا توجد محكمة فى البندر الصغير يمكنه العمل فيها . قال إنه يمكنه العمل فى أى مكان . الدرجات على الورق والناس لا تبحث سوى عن قاض عادل يشعر بما يعانون منه .

قالوا له ، وما العمل مع اللوائح والقوانين ؟ . ستنقل إلى المدينة الكبيرة . كان السكن فيها مستحيلاً . وهكذا لم يعد أمامه سوى استخراج ابونيه حتى يوفر أجرة السفر اليومية .

يجلس فى الدرجة الأولى ، وعندما لا يكون فيها مكان خال ، يصيح المحصل فى الجالسين .

– السلطة القضائية تقف ، ودا معقول . قوم ياواد إنت وهوه .
كان المحصل يتفاكه قائلاً :

– إن سعادة البيه ، له سلطة وضع القطار بمن فيه فى الحبس .

ومع مرور الوقت ، كان العسكرى المعين للقطار ، يحجز له مكاناً خالياً بجوار النافذة ، التى كان ينظر منها قتلاً للوقت .

ولأنه قطار يتحرك على قضبان توصل بين المدينة الكبيرة والأرياف . فهو يمشى متعباً . يتجشأ ويسعل ويكح ويعطش ، ويتم تخزينه كثيراً على قضبان

فرعية في المحطات . حتى تمر القطارات السريعة .

كانت تعبر قطاره المتعب السيارات الفارمة ، التي تهجم على الطريق ، يشاهد فيها أحياناً ، بعض الذين وقفوا في القفص أمامه . طبق قوانين البلاد عليهم وأودعهم السجون . بعدد سنوات تفوق اعمارهم . ولكن هاهم طلقاء ، يرمحون على السكك ، يسابقون الريح بسيارات لم ير مثلها من قبل في حياته كلها .

يبدأ في حساب مدد سجنهم ، يجمع وي طرح ويضرب ويقسم ، يدخل في اعتباره الفارق بين سنة السجن والسنة العادية ، لا ينسى مناسبات العفو والافراج واعتبارات حسن السير والسلوك ، واحتمالات الافراج في المناسبات الوطنية والقومية . ولكن عقله يتوه .

يقرر ان يسأل الذى حل مكانه عن مصائرهم ، وكيف خرجوا بهذه السرعة ؟ يصرف خاطر عن باله فوراً . ذلك أن تنفيذ الأحكام لا علاقة للقضاة به . يقول في نفسه ، « دع الملك للمالك » .

يصل إلى المدينة مبكراً . في تلك الساعة المتروكة للشحاذين والمتسولين والباحثين عن الفضلات . تتأكد النهارات فتأتى معها بأناس وبشر ووجوه جديدة .

تصل القطارات ، تتوقف الاتوبيسات في محطات نهاية الخط ، تطرد زبائن المدينة الجدد من جوفها . ينزلون ، يسعون في الشوارع ، تتوه الحدود التي تفصل بين الغرباء وأبناء المدينة . أما في البنادر الصغيرة ، فالحدود واضحة وفاصلة بين الغريب وابن البلد .

المدينة الكبيرة . عواصف يومية من الوجوه ، النساء هشات مذهولات ، كالطيور في ثيابهن الخفيفة والواسعة والفضفاضة ، وكأنهن محصنات ضد الحرارة . الروائح التي يتركها وراءهن تتداخل وتتقاطع وتتحارب في شوارع المدينة .

تصل حساسة الشم لديه إلى أقصى درجة لها . لكن روائح العرق البشرى
تأتى فتفسد هذا كله ، وتسد فتحتى أنفه .

مدينة غريبة ، كل من يعيشون فيها يجرون بسرعة أثناء سيرهم ، لا وقت
لديهم حتى للحلم ولا لتذوق الكلمات قبل النطق بها .

يأتى القاضى من عالم إلى عالم آخر ، يعبر من دنيا الضوء والحرارة ، حيث
يمكنه أن يرسم بالأخضر والأسود والأزرق كل ما يراه . يصل إلى هنا ، حيث
يواجه عالمًا من صخب الألوان ، وضجيج خيوطها وبقعها .

مدينة هائلة ، جهاده الأساسى - من لحظة وصوله إليها - أن يصون عزلته
الداخلية .

يقابل ، فى الطريق من المحطة إلى المحكمة - الذى يقطعه على قدميه - بعض
زملائه . يكتشف أن المسافة بينه وبينهم تتسع ، وأن اللغة التى يحدثونه بها ،
تجعله يتوه بعيدًا عنهم ، لا توصله بهم أبدًا .

فى يومه الأول . تسلل إلى مبنى المحكمة ، دون أن يعرفه أحد . دخل كأحد
الداخلين من المتقاضين ، والمبنى عبارة عن مجمع محاكم . فى بلدته البعيدة .
كانت محكمة وحيدة . الكل كان يعرفه هناك . حتى جدران المحكمة الكالحة .
ولحظة دخوله المحكمة ، كانت لها شنه ورنه .

هنا آلاف يدخلون ، مئات يخرجون . وصل بصعوبة إلى الدائرة التى
ستكون من نصيبه . قدم نفسه للكاتب ، وجلس . جاء الحاجب وفراش الطرقة ،
ومعهما شخص ثالث .

حدث الحاجب القاضى وكأنه يوشوشه فى أذنه . قال إن المنادى ، وأشار
للشخص الثالث . جاء يسأل عن سيارة سعادة البية ، القاضى الجديد . لكى
يركنها بمعرفته صحيح أن هناك مكان مخصص لانتظار سيارات السادة
القضاة ورجال سلك النيابة .

ولكن زحام السيارات في المنطقة ، يجعل الإنسان يرش الملح فلا ينزل إلى الأرض ، من شدة الزحام . والمنادى يفعل ذلك خدمة للعدالة ولوجه الله ، سبحانه تعالى والبلد .

رفع القاضى رأسه المتعب ، كانت الرؤية قد بدأت تزغلل في نظراته . مد يده ، عدل بها من وضع النظارة على عينيه ، جعلها في مكانها الطبيعى .

قال وهو يجفف عرقه :

ـ ما عنديش عربية .

حاول الحاجب أن يخفف من دهشته ، انسحب ومعه الرجلان . الساعى والمنادى ، متقهقرين بظهورهم ، سأل القاضى نفسه عن سر هذه الطقوس ولماذا يفعلونها .

سمع كلامهم ، بعد الخروج من أمامه :

ـ قاضى ومن غير عربية .

ـ داجاى مقشط .

ـ تلاقيه على لحم بطنه . ما غيرش ريقه .

ـ الحقه بكباية الشاى لحسن يسورق .

سمع كفاً يضرب بكف :

ـ يبقى الرزق حاينقطع والحكاية حاتنشف .

ـ النوع ده عمره ما يفتح مخه أبداً .

بدأ له مبنى المحكمة ضائعاً في دخان المضاريات . نظر من الباب الموارب إلى قاعة المحكمة . كان الحاجب ، الذى انصرف من أمامه منذ قليل ، قد أصبح هناك . يوزع التحذيرات ، والتهديدات والشتائم على من لم يدفعوا بعد ، ويقدم ابتساماته ووعوده الكاذبة بالبراعة لمن يدسون الأوراق المالية في يده خلسة .

لا يستطيع الحاجب النظر إلى الأموال أو عدها . الاحتياط واجب . ولكن

أنامل الأصابع ، أصابع يديه ، كانت تتحسس الأموال . خيل إلى القاضى أن هذه الأنامل قادرة على معرفة قيمة ، حتى الأوراق المالية .

يسأل القاضى نفسه : كم عمارة عنده الآن ؟ فى أى مكان يركن سيارته أمام المحكمة ؟ يبدوله من جلسته أن هواء القاعة مقيد ، وأن الناس ساهمون فى حالة انتظار . جلس يطل منه حياء الريفى . ثم دخل إلى قاعة المحكمة ، نادى الحاجب بصوته القوى ، الذى كان يوشوش به منذ قليل :

ـ محكمة .

صوت الحاجب يرن فى صمت القاعة . كل الذين يقفون له الآن ، يعيشون فى هذه المدينة الصاخبة ، التى لم يتمكن من السكن فيها . يتصورهم من أولاد المدن ، وهو تصور إفتراضى فى ذهنه .

ما من أحد منهم ولد فى الأصل فى مدينة ، من ليست له قرية جاء منها ، لا يعدله حسب أو نسب أو أصل . مقطوع من شجرة بدون سلسال .

الذين وقفوا لحظة دخوله المحكمة جمهور صاخب ، سبى الهندام ، تصدر منهم أصوات مكتومة وقهقهات بترت من منتصفها ، وهمهمات تنم عن نفاد صبر .

جلس وأشار للناس حتى تستريح . أطل على القاعة من جلسته . استنشق رائحة الغبار المتصاعد من القاعة إلى أعلى . يحاول أن يرى الغبار فى حركته وسيره . على ضوء أشرطة الشمس المتقاطعة . والتى تتسلل من شقوق السقف وتصدعات الجدران .

المتهمون فى القفص كالموتى من القلق . والشهود يقرضون أظافرهم وقد أمرضهم التهيب . وجمهور ضخم من المتسكعين والمتعطلين الذين يتحركون فى المدينة الضخمة بدون عمل . والذين على المعاش جاءوا إلى المحكمة ، مكان بدلاً من المقهى . على الأقل جلسة ببلاش . لا تمتد فيها الايادى إلى الجيوب . وأن امتدت الأصابع فمن أجل أن تهرش فى عروق الهيافة فى الاقفية المغطاة بشعور

امتدت الأصابع فمن أجل أن تهرش في عروق الهيافة في الاقفية المغطاة بشعور كثيفة لانهم لا يملكون أجرة الحلاقة .يبدأ بالنظر إلى الأوراق التى أمامه ، تلتصق رموش عينية بالورق ، لا يفصلهما سوى زجاج النظارة ، تتحركان مع القلم الذى يخط مصائر البشر في أحرف سريعة .

تنسل عيناه إلى هناك . حيث الناس الذين يجلسون على المقاعد مرهقون من الذباب ، والضوضاء والخوف الذى يجمد النطف في الظهور والأجنة في الأرحام . إستنكر في نفسه خمود المكان والعناكب والتراب والألوان التى تاهت تحت خطوط الزمان . كان يتصور أن محكمة المدينة الكبيرة ، مثل المحاكم التى يشاهدها في الأفلام .

إكتشف فيما بعد أنها عبارة عن ديكور يتم بناؤه من أجل التصوير فقط ، ويتم هدمه بعد التصوير مباشرة . بحث بعينية عن سماء الله السابعة ، إصطدمت رموش عيناة بالسقف الواطئ والمراوح المشنوقة فيه . المعطلة منذ أن تم تركيبها .

نظر ناحية القفص ، سمع كلمات متدفقة ، تتناوب مع نهنات البكاء وقطرات الدموع . إنها النههة التى لا تنتهى أبداً . ثم تأتى عاصفة الدموع . كما لو ان خراجاً قد انفجر ، أو ان ديدان جرح غائر قد تحركت . الدموع تغسل الأعين وتكسبها جمالاً نادراً . سمع مؤخراً عن أعين بعض نساء الأكابر . وأنها قد جفت . لم تعد قادرة على أن تفيض بالدمع . المرض اسمه : جفاف العين . مكتوب في الصحف أن الدولة تستورد لهن دموعاً صناعية من باريس .

وإنهن يطالبن حكومة الفقراء أن توفر لهن العملة الصعبة من أجل استيراد هذه الدموع وإلا أصبحت أعينهن مهددة بالجفاف .

مسكينة حكومتنا . أى جفاف ستعالجه ؟ جفاف النيل ؟ أم جفاف القلوب ؟ أم جفاف الضمائر ؟ أم هذا الجفاف الأخير ؟ جفاف اعين نسوان الأكابر ؟

فى القفص متهمات من نوع خاص ، والمتهمة لا تتحدث عن التهمة الموجهة إليها . ولكن كل واحدة تحاول الهروب ، لا مفر أمامهن سوى العودة إلى ذكريات الطفولة البريئة والحكايات القديمة فى حبات القلوب ، فى انتظار أن يستمع لهن أحد .

الكل باطل وقبض الريح ، أكاذيبهن أكثر إنسانية من الأكاذيب المدونة فى الأوراق الرسمية ، الذى تفوح منه رائحة الحبر ، والمكتوبة بخطوط سكرتارية التحقيق وسكرتارية النيابة ، وسكرتارية الجلسات . الذين يمسون الأقلام بأصابع ملوثة بالأكاذيب .

فى محاكم البنادر التى عمل فيها من قبل ، كان وارد هذا النوع من القضايا قليلاً . يصبح نادراً فى كثير من الأحيان . ولكن الوارد هنا أضخم من أى وارد رآه من قبل . من كان يتصور ؟

يشيل عينيه من فوق الأوراق . يطوح نظراته ناحية القفص . تصل إلى أنفة الروائح ، كأنهن أحضرن معهن من السجن القيود وبحار الدموع لكى يعمن فيها . وأنهار الأكاذيب حتى يغرقن فى مياهها .

وتأتى واحدة من بنات الليل ، كما لو كانت ثملة . تتباطئ الكلمات فى فمها . تصاب أخرى بالخفقان اثناء الإجابة ، يشعر بالتعب الذى يأتى بعد الغيظ مباشرة . ينظر إلى الجميع . نسوه منكمشات على أنفسهن . نوع جديد من القضايا لم يألفه بعد .

فى القفص بعض الرجال ، وإن كانت التهم مختلفة عن تهم النساء . تسهيل دعارة إدارة بيوت للدعارة . تسول النظرات منكسرة ، والكلمات تذبذب على الشفاه قبل النطق بها . وخجلهم أضعاف خجل النساء من حولهم .

رجال من نوع خاص هم . رجال يقفون على أرض حريمى ، نواعمى . أرض النساء ، ووسط لعبه جميع أبطالها من النساء . ياه . إن خجل الرجال هنا لا حدود له .

تتداخل الأجساد في القفص ، يتكلمن لغة مجهولة . تتحرك واحدة داخل القفص . مسكينة . تدوس على الأرض وكأنها تصافحها أو تفكر في تقبيلها . أجساد مقوسة ، منكمشة على نفسها .

واحدة تتماحك ، وثانية تتضاحك ، وثالثة تتظارف ، ورابعة تتباكى ، وخامسة تتباهى ، ولا يعرف بأى شىء تكون المباهاة . يهمس لأوراقه :
- هيه ، دنيا .

رأها لأول مرة في القفص ، في لحظة كان قد شبع فيها تمامًا من نهنات البكاء ، ومن منظر الدموع السائحة على الوجوه . يختلط الأحمر بالأسود بالازرق بالأخضر ، يتحول الوجه إلى مشروع لبلياتشو في مولد شعبى من قرية منسية .

القصص المعادة والمكررة . الحكايات التى كان ينخلع لها قلبه في الماضى البعيد . ويقف لها شعر الرأس ، ويقشعر البدن .

نظر إليها ، ففكر في يوم محاكمته هو ، وأمام من سيقف ، وهل يحكم القاضى بالعدل ، أم سيحوطه الظلم من يمينه وشماله ؟ شرقه وغربه ؟ فوقه وتحتة ؟ قال لنفسه :

-إنسانة مختلفة تمامًا .

وضع القلم على الأوراق التى أمامه ، نحى الورق والقلم جانبا . أخرج منديله وجفف به عرقه . وضع النظارة على عينيه حتى يرى جيدًا . لم يكن دورها في الرول قد أتى . نظر إلى أسماء أصحاب القضايا . توقف أمام اسم محدد ، أقسم في نفسه أنه لابد وأن يكون اسمها .

عاود النظر إليها ، نطق بحكم في قضية ذات طابع سياسى ، لا يعرف من الذى رمى بها إلى دائرته . كتاب يسكن تلافيف العقل الجماعى لأمته . مطلوب منه أن يحكم بمصادرته . لأنه أطلت من بين صفحاته فاتنه جاءت من الأحلام .

تحركت خلال أحرف كلماته مخلوقة معجونة من النور والنار والماء والوهج
والرغبات المجنونة .

إلى أين يحاول المجانين شد الديار ؟ ! .

إلى أى زمان سحيق ، وإلى أى أمكنة مظلمة يحاولون أخذ الجميع ؟ كان
ممثلاً الادعاء رئيس نيابة الأداب قد انتفخت عروق رقبتة ، وهو يطالب بحرق
مخلوقته الجميلة . مخلوقة الدهشة والحنين والأسطر والأحرف والكلمات
المحلقة في عوالم الخيال في ميدان عام .

كانت محكمة أول درجة قد حكمت بالمصادرة . وبعد أن عانق القضية أكثر
من ليلة ، وجرى وراء أحرف الكلمات ، وحلق مع الحكايات . وسبح في بحار
الليالي المدهشة . الغى الحكم الأول في سطر واحد .

شعر براحة لم تتسلل إلى حياته من قبل قط . بعد أن وصل إلى قراره . كأنه
هو الذى أبدع هذه الفاتنة الساحرة التى حاولوا احراقها ، في ميدان عام .
كان الحكم قد أصبح جاهزاً . قال له أحد أعضاء المحكمة :

– ستقوم الدنيا .

أكمل العضو الآخر :

– ولن تقعد بعد النطق بهذا الحكم .

جفف عرقه ، تذوق من جديد متعه الفن الجميل ، ورأى رحابه العوالم
اللانهاية . كتاب ليست له صفحة أولى ، ولا صفحة أخيرة . من المستحيل أن
يدعى بشر أنه قرأه من الجلفة الأولى وحتى الجلفة الأخيرة .

صفحاته ليست لها أرقام . يسكنه بشر لا يعرف أحدهم الآخر . لو وافق على
حرقه ، لأنهى دخان الحريق الحياة البشرية على الكوكب الأرضى كله .

قد يتحول بناسه وحيواناته وطيوره الجميلة وأشياءه وأرضه وسماؤه
وهوائه إلى كتلة من الفحم الأسود من يديره ؟ ربما امتد الدمار إلى كواكب
أخرى .

نظر إلى العضو الذى يجلس على يمينه ، ثم حديق فى العضو الذى يجلس على يساره .

قال :

- [نقاذ بر مصر يساوى .

لم يفهما ما قاله الرجل ، تصورا أن لطفاً أصاب عقله ، كتسم كل واحد إحساسه بداخله واخفاه حتى عن نفسه . يعود إلى الجلسة ، يتعامل مع اناس غير قادرين على الكلام ، وإن تكلموا تخرج الكلمات من أفواههم بصعوبة بالغة ، يفاجئه الظهر مبكراً . يجىء قبل الأوان . رغم أنه يتلكأ كثيراً قبل الحضور عندما يكون فى البيت .

طريق العودة . الوقت هو بعد الظهر ، أنه الزمان الممتد مثل خيوط الصوف لا ينتهى أبداً . وقت اشبه بجثة ميت . لم تجد من يدفنها . كلما توغل النهار فاحت الرائحة بصورة لا تطاق .

النهر ليس هو نفس النهر ، والطريق لم يعد هو نفس الطريق . وقضبان القطار لم تعد طريقه الوحيد . عائد ولن يستطيع الهروب من لحظته الصامتة معها . عندما استعادت روحها من قطرات الدموع .

الأغصان عارية من الأوراق ، تقف عليها العصافير ، يتصوران أن الأغصان والفروع قد ارتدت عصافيرها بدلاً من الأوراق التى تساقطت .

لقاءات الصدفة مع مسافرين مجهولين . تنف من أحاديث تصل إليه . تقطع رقبته رحلة كل يوم . طيوف مسافرين . رحل ، سماء وأعشاب . أرض وأشجار ، طيور وحيوانات وأناس تعجنهم جميعاً سرعة القطار ، فى منظر تتوه تفاصيله الصغيرة .

يضطر إلى الاصغاء للثرثرة اليومية . يفشل فى الهروب إلى خيالاته وتأملاته . يفكر فى شراء سدادات للأذان . حتى تفصله عن هذا اللغط والصخب والضجيج . يخشى أن يكون سعر هذه السدادات غالياً يحتاج اثنتين منها فقط .

ويخجل من منظره وسط الناس ، والسدادتان في اذنيه . يرد على ما يسمعه
بتهدب ورغبة في تقفيل الموضوعات .

لحظة الخروج من المحكمة ، حالة من التكدس في القاعة . المقاعد القديمة ،
والناس وأوراق القضايا . ينظر أمامه . جدران لا مرئية . يبحث عن الظلال .
يكشف أنها أصبحت ظلالاً . مجففة .

يخرج من المحكمة قرب العصر . منهك ومتعب . عرقه مرقه ، يسمون هذا
الوقت ما بعد القيالة في البندر البعيد الذى يعيش فيه . ساعة ما بعد العمل .
يقصدون ما بعد انهاك الجلوس في مكاتب الحكومة والقطاع الخاص والقطاع
العام ، وشركات الاستثمار الانفتاحية . بدون أى عمل .

يعود إلى البندر ، بعد أن استطلال اليوم ، وامتد عبر حكاوى الناس وهمومهم
التي يشيلونها على اكتافهم ، يتركه القطار في صمت ساعة المغارب المتلائي .
يكشف لحظة نزوله أن غبار السنوات نزل على البيوت والأشجار والزرع
والناس .

رحلة الإياب . نوبة الرجوع . تبدو له الطرق والحقول والفضاء . كل هذا
طافح بالغبار . تنام الظلال على أهداب احلام الناس المرتعشة .
يمشى في الشوارع إلى بيته . تترنح الجدران . شمس الغروب تملأ العالم ،
وتفرش الكون . تتسع شقوق الاراضى الشراقى . يعود الناس من موتهم في
الغيطان ، إلى موتهم في البيوت .

يجمعون الخطارى المبعثرة في طريق التراجع إلى الخلف بالظهر المتعب
والمرهق . يلفت نظرة الشكل الناعس للخلق . يمشون وكأنهم يواصلون نوم
القيالة .

الديار غارقة في بحار الضوء . ضوء الشمس الوهاج . شمس ما قبل الرحيل .
ومن يجد مساحة من الظل ، كمن يعثر على شبر في الجنة . يفتش عن قروش
ظلال الأشجار المرشوشة على أرضية الشوارع .

ينهكه الناس في البندر بأسئلتهم وثرثراتهم الفارغة التي يتحملها بصدر رحب .

يصل إلى البيت . آخر مساكن شعبية . بناها عبد الناصر قبل إستشهاده . يرى بيته تحت حرارة الظهر المتموجة فيشعر — لأول في يومه — بالطمأنينة العذبة ، وسط كل هذه المخاوف .

في البيت ، يعرف مرور النهار البطيء من حركة الشمس . عندما تتسلل إلى غرفة النوم الضيقة . يكون الضحى قد حل . تفرش قروشها المتناثرة البلكونة التي يقف فيها بصعوبة بالغة ، يدرك أنه الظهر ، تنسحب الشمس من البيت وتولى هاربة ، يقول لنفسه أن الأصيل قد جاء أخيرًا .

الوقت تراب مبلى بالانتظار ، معلق برموش الأعين . لا يعرف كيف يتصرف فيه . يتأخر الظهر عن مواعده . والغروب يتلكأ كثيرًا على أبواب البندر . والليل يتوعد الفجر الذي يأتي بعده .

يتساءل وهو يخطو نحو عتبة البيت : هل يجد في الكتب المغبرة في بيته الفقير . إجابة على لغز هذا الكائن الفريد الذي اسمه غزلان ؟ .

امرأتان هزتا كيانه . ذلك المخلوق الخارج من بين أوراق الكتاب العظيم ، وتلك التي يعرف أنها غزلان . أحب الأولى عندما أطلت عليه من وسط الأحرف وخلال الكلمات .

شارف على الجنون ، كلم نفسه . حاول استخراجها من بين الأحرف والظلال والنقط والحروف . كاد أن يمزق الورق ، جنية أو نداهة ؟ لا يعرف بالتحديد .

ما أن رأى غزلان حتى قال : هذه من دم ولحم . ها هي أمامه . لعلها أن تشفيه من وجع فاتنة الحكايات والليالي . التي كلبشت في حشاة وامسكت بحبابي قلبه .

مجروح هو بجنس النساء ، منذ أن جلس على مقاعد الدراسة ، كان موقفه

منهن شديد التعقيد . يحبهن حتى الجنون نفسه . ويخشاهن ويخافهن خوفه وخشيته من الموت .

يتحرق شوقاً إليهن . وما أن يحدث الاقتراب حتى يبدأ على الفور التفكير في الهروب . قصة معادة . وأن كانت تحدث كثيراً . وإن لم تجر في أرض الواقع . فهي تحدث في خياله ، في سنوات الصبا والشباب ، تفرغ تماماً للدراسة . قال لنفسه ، لأحصل على الشهادة أولاً . ثم أفكر بعدها في التفاريح . لم تكن ظروف العائلة تحتل أى هزة أو مغامرة . اليوم دراسة وغداً لهو . سيعيش الحياة بمجرد أن ينتهى من هم الدراسة .

ولكن الذى حدث أن هم وجهاد الدراسة أسلماه إلى سجن الوظيفة والعمل . ليس من حقه أن يلهو وأن يعيش حياته . مثل بقية خلق الله .

كان يحسد الذين يقفون أمامه . كان ينظر إليهم في بعض الأحيان بإعتبارهم أكثر حرية منه . كالقطار هو كتب عليه أن يمشى على قضبان رسمت له من قبل ، من لحظة البدء وحتى وقت الختام . مثل القطار الذى يستقله مرتين يومياً .

مسير لا مخير ، في حين أن كل الناس الآخرين ، يرمحون على السكك ، سكك الله الواسعة ، كالسيارات الطائرة في الهواء ، تقودها الطرق ، أو تبحث هي عن السكك التى تهواها . دون الارتباط بخط سير معين ، سأل نفسه : ومتى يكون حرّاً ؟ بدا له الطريق طويلاً . بعد المعاش . وهل يكتب له العمر إلى ما بعد المعاش؟ وإن طال به الأجل . ماذا سيكون لديه وقتها سوى حكمة الشيوخ وضعفهم وانتظار النهاية التى قد تأتى وربما تأخرت كثيراً .

جاءته فاتنة الكتاب الخالد . نجاها بحكمة من الحرق في ميدان عام . لحظة النجاة كانت هي نفسها لحظة فقدانها . لكنه عندما التقى بغزلان وجها لوجه . كان لديه يقين لا يعرف مصدره ، أنها نفس الانثى المدهشة الخارجة من قيعان الكلمات ومن رحم الاسطر .

تمثل عمرة من الألف إلى الياء . قصص النساء اللاتي عبرن حياتهن : زوجته ، أم أولاده وربة بيته . شقيقاته . جاراته ، قريباته . زميلاته في الجامعة . من احتك بهن في ظروف العمل .

كم كانت حياته يابسة مثل الأرض الشراقي التي تعاني من الجفاف منذ أن أصبحت أرضاً . ها هو قارب النجاة يلوح له . ولكنه يدرك ويعرف أنه القارب المستحيل .

موقفه الموضوعي منها يتمثل في أحد أمرين لا ثالث لهما . إما أن يراها مثل فاتنة الكتاب الخالد . أو أن يدينها . لم يقدر لا على الأمر الأول ، ولم يستطع الاقتراب من الأمر الثاني . كان أميل إلى براءتها ولكن كيف ؟ آه لو تكلمت ؟ لو نطقت ؟ إن البراءة بالنسبة للمتهم إرادة أكثر منها امكانية . وهي لا تريد هذه البراءة . لا تريد أى شيء بالمرّة . فماذا يفعل ؟

يتمنى لو أنها ساعدته على أن يقف بجوارها . لودلته على من يقوده إلى لسانها . حتى يجعله ينطق . ولكن صمتها بدا له كالدهر ، لا نهاية به أبداً . لابد وأن هناك طريقاً ثالثاً . ولكن أين هو ؟ أين الحل السحري الثالث . أين ؟ وكيف الوصول إليه ؟

جلس إلى مكتبه . كان الوقت صباحاً . فرد الأوراق أمامه ، امسك بالقلم الحبر ، الذي ينتمي إلى زمان مضى ، والذي يتعب كثيراً قبل العثور على حبر له . في هذه الأيام .

لن يدون منطوق الحكم . ولن يكون مطلوباً منه البدء بعد ذلك في تدوين حيثيات الحكم . والتي يكتبها عادة بالقلم الرصاص .

جلس يكتب طلباً هو الأول من نوعه في حياته القضائية كلها . منذ أن جلس على مقاعد الدراسة في معهد الدراسات القضائية في وزارة العدل . وطلبوا منه يومها وهو ما يزال شاباً صغيراً أن يلبس البدلة الكاملة ورابطة العنق . لم يكن لديه واحدة . نزل إلى المحلات واشترى واحدة . ومن يومها وهو لا يستطيع

الذهاب إلى عمله ، أو الظهور في أى مكان بدونها . قال له استاذہ أن القضاء ليس وظيفة ولكنه رسالة يعيشها القاضى اربعة وعشرين ساعة كل يوم . من جميع أيام عمره .

جلس يكتب طلبًا بالتنحى عن نظر قضية غزلان مع قرار احالة القضية إلى دائرة أخرى .

سيسألونه عن الأسباب . هل هناك قرابة قانونية مع أى طرف من أطراف القضية ؟ ماذا سيقول ؟ لديه التعبير الذى كان يقول عنه من قبل أنه تعبير مطاط : لاستشعار الحرج .

ويصاب ضوء النهار بحالة من التكدس . يأتى آخر النهار . كلمتان فقط تكفيان لوصف الأمر كله : الذبول والتلاشى .

هكذا تنتهى القصص

قاض

وامرأة

وكاتب

وضابط

ومحام

ومؤلف .

ومادمنا قد بدأنا بالمؤلف .

فليس أمامنا سوى أن نختم به .

وهذا ما سنفعله فى الآن .

مكسور الجناح فى البدء .

مكسور الجناح فى المنتهى .

قضى يوسف القعيد ، السنوات الأربعين الأولى من عمره فى انتظار الانصاف

المستحيل . ولكنه بدلاً من الرسو على شاطئ الخلاص . وجد نفسه على الضفة

الأخرى لليأس .

عاد إلى قريته يسألها عما جرى له . لم حدث ؟ قالت له الأرض والأشجار

والترع وطين البرك ونقيق الضفادع ونهيق الحمير وتباح الكلاب وصهيل

الخيول وسن المحراث ، وبكاء الساقية ، وتزييق الشادوف . لم تعرف جيداً لغة

العصر التى تقول :

– قيراط حظ ولافدان شطارة .

قال له أنين المستضعفين في قريته :

– الناس نوعان . نوع كن فيكون . وآخر شعاره : إذا لم يكن ما تريد ، فارد ما يكون .

الخلق نوعان . صنف يضرب الآخرين . ونوع آخر جاء إلى هذا العالم لكي يُضرب . مهمته ودوره في هذا الكون تلقى الضربات . أنت منا – قالوا له في قريته – نحن المستضعفين ، ولذلك ذهبنا إلى هناك لتضرب ، ليس مهما من الذي يضربك . ولكنك المضروب دائماً . يتغير الذين يضربون ولكنك تضرب .

وحظك السيء ، سيحرمك حتى من تعاطف أعضاء نادى المتفرجين من المصريين معك كمضروب . وتصل قلة البخت إلى مداها . عندما ستطلى من الخارج ، بطلاء يقول لكل من يراك ، أنك أنجح أبناء عصرك . ولذلك فمن المفروض أن تكون أكثرهم سعادة . شبت من أيامك ، وامتلات من زمانك فتحمل .

لكنهم قدموا لك العزاء قبل العودة إلى المدينة . قالوا لك أن الأشجار التي تموت وهى واقفة . أكثر شرفاً من تلك التى تنحنى . فالدخول في دائرة الانحناء يفقد الإنسان القدرة على الخروج منها .

وهكذا قرران يجعل من قهرة وكمدة وحزنه ، رفاقه حتى الدخول إلى تلك الفتحة الصغيرة في باطن الأرض . التى سينزل منها إلى القبر ، في آخر نزول له ، بعد عمر كله عملية نزول مستمرة .

إن القبر مبنى من الآن في انتظاره . في منتصف المسافة بين الضهرية والعتقا . إذا تحدثنا عن شمال الضهرية وجنوبها . وفي المسافة بين بحر النيل وترعة ساحل مرقص . أن كانت الحسبة بين الشرق والغرب .

ما كان يحزنه إلى حد الرغبة في البكاء المستحيل ، إنه أصبح من سكان المدن،

منذ منتصف الستينيات ، وسلم البيت الذى يسكنه ضيق . وسيكون نزول النعش منه صعبا ، إن لم يكن مستحيلاً . فهو يسكن فى آخر مساكن شعبية بناها عبد الناصر العظيم قبل استشهاده فى مدينة نصر .

بيته بدون مصعد ، وحتى أن ركب فيه مصعد مستقبلاً ، فأين هو المصعد الذى يسع النعش الذى يستخدمونه فى قريته ، أو الخشبة التى يحملونها فى المدن .

فى المستشفيات فقط ، مصاعد تسع النعش أو الخشبة ، ولكنه يفزع دائماً من فكرة المرض الأخير . يحلم كل صباح بذلك الموت المفاجئ الذى يدهم الإنسان وهو يمشى على قدميه .

ومحمد بن يوسف بن يوسف من آل القعيد ، [مع ضمه على القاف وشده وكسره على حرف الياء . وليس القعيد بمعنى الجليس ، كما حاول دكتور كل العصور أن يسخر من إسمه] .

أو يوسف القعيد شخص سيئ الحظ منكود الطالع . شرب دماءه أصدقاء عمره ، وما أندرهم ، ومضغ لحمه وحاول تكسير عظامه وكسر روحه أعداؤه ، وما أكثرهم ، يهيم فى الحياة كالنائم ، وهو يحمل طعنات أبناء جيله وسهام رجال المرحلة الماضية . وتصوب إلى صورته بنادق الأجيال اللاحقة ، التى يحلم أن يكون أبناءها أقل تعاسة منه .

وبمناسبة الحديث عن الأحلام . منذ أن جاء إلى هذا العالم . وهو يحلم كل ليلة ثلاثة أحلام . الأول : أنه مطارد . يحاول أن يجرى فيكتشف أنه بدون قدمين ، ينظر إلى الخلف ، ليس فى غضب ولكن فى هلع . يرى من يطاردونه وهم يكثران مع استمرار المطاردة .

من المنام الأول يخرج المنام الثانى ، يحاول أن يطير . أن يخلق فى العلالى . يحرك جناحيه فيأتيه الاكتشاف تلو الاكتشاف ، والادراك يعد الآخر ، مكسور الجناح هو ، منذ لحظة البدء ، التى جاء فيها إلى هذا العالم .

ولأنه حلم ، فهو يتمكن من التحليق . على الرغم من أن جناحيه مكسورين .
يطير . وبعد التحليق . لابد ، وأن يقع ، يتذكر بعد أن يتناثر جسده ، وتطير
الشظايا يا في الأجواء الرمادية ، الجملة التى كان يحفظها من أيام الكتاب في
قريته .

– ماطر طير وارتفع .

إلا كما طار وقع .

المنام الثالث مخجل . يرى نفسه ، فيما يرى النائم . أنه يمشى عارياً ، مثل
لحظة خروجه الأولى من رحم أمه . الكل عليه ملابس ، أشكال وأنواع إلا هو ، لا
مطلب له سوى ستر عورته ولكن كيف ؟ عورة في الأمام ، وعورة في الخلف .
يفكر إن له يدان . يد تستر عورة الأمام ، ويد تستر عورة الخلف . يحرك يديه
باحثاً عن الستر المستحيل ، فلا يجدهما .

بدون يدان . يذوب من الخجل ويتلاشى من الاحساس بالعار . والكل ينظر
إليه . طول عمره وهو يحن إلى دفء الآخرين . ولكنه يقول لنفسه في لحظة
العرى الرهيبة ، الجحيم هو أعين الآخرين .

ما يحزنه بعد الصحو من النوم ، وانتهاء المنام ، كثير ، ولكن أكثر ما يجعل
الأسى ينسال في أعماقه . دافئاً وحنوناً ، إنه يرى الأحلام باللونين ، الأبيض
والأسود فقط .

يفكر في كل مرة ، أن يسأل مفسرى الأحلام ، وعلماء سيكولوجية الأعماق
عن السر في ذلك . ولكنه ، وفي كل مرة ، كان يؤجل السؤال إلى مناسبة أخرى .

ما إن ودع يوسف القعيد ، السنوات الأربعين الأولى من عمره ، حتى بات
يسأل نفسه ، قبل أن يغمض عينيه عندما يأتيه النوم : هل تتحقق أحلام
النهاية ١٩ .

يقول لنفسه ، ما من حلم من أحلام البدايات والوسط قد تحقق . فهل يكون

حظ أمنية النهاية أفضل من حظوظ الأمنيات الأولى ؟

يشك في ذلك ، لأن تحقيق الأمنيات له ناسه . يعرفهم منذ لحظات الميلاد الأولى .

في النهار خوف ، وفي الليل رعشة ، وفي الأحلام مطاردات لا أول لها ولا آخر . وجهه المتعب ، يبحث عن القنديل . مصباح علاء الدين . الذي تاه منه وسط فوضى البلاد .

لديه يقين أنه قد لا يجده أبدًا . ومع هذا ، ليس أمامه سوى البحث عنه . حتى تعود البلاد الوطن الذي كان .

لا مفر من العثور على هذا القنديل . وأن وجده هل يجد الزيت الذي يضيئه ؟ وإن عثر على الزيت أين الكبريت ؟ وإن كان الكبريت ممكنًا أين له اليدين اللتين تحملان المصباح وتشعلان الكبريت ؟ أين هو الضوء المعلق فوق الهاوية ؟ والذي أوشك الليل الذي يحاولون جرنًا إليه أن يلتهمه وأن يغيبه في جوفه . قاض : تنحى .

وامرأة : في انتظار المجهول .

وكاتب : أين دوخان الشهرة ؟

وضابط : القفزة إلى أعلى متى ؟

ومحام : أين دوخان عد الأموال ؟

ومؤلف : لا بد من طوفان . ذلك هو الخلاص الوحيد .

أنا المؤلف التعيس ، الذي أضاع كل إمكانات العمر ، بحثًا عن المستحيل المستحيل . أقول لن يصلح فوضى البر ، بر مصر ، سوى معجزة ، بعد أن سلمنا أرواحنا جميعًا لغول اسمه : العجز .

المحتوى ..

٥	١ - هكذا تبدأ القصص .
٩	٢ - قصة أولى عن غزلان .
١٥	٣ - قصة ثانية عن الضابط .
٢١	٤ - قصة ثالثة عن الكاتب .
٢٩	٥ - قصة رابعة عن المحامى .
٣٩	٦ - قصة خامسة - ولن تكون الأخيرة - عن القاضى .
٥٧	٧ - هكذا تنتهى القصص .

مؤلفات يوسف القعيد

- ١ - الحداد رواية طبعة أولى ١٩٦٩ طبعة الثالثة ١٩٨٧ .
- ٢ - اخبار عزبة المنيسى رواية طبعة أولى ١٩٧١ طبعة ثانية ١٩٨٥ .
ترجمت إلى الروسية والصينية واليابانية .
- ٣ - أيام الجفاف قصة طويلة طبعة أولى : ١٩٧٤ .
- ٤ - البيات الشتوى رواية طبعة أولى : ١٩٧٤ طبعة ثانية ١٩٨٦ .
- ٥ - فى الأسبوع سبعة أيام قصة طويلة . طبعة أولى ١٩٧٥ .
- ٦ - طرح البحر . قصص قصيرة طبعة أولى ١٩٧٦ . طبعة ثانية ١٩٩٠ .
- ٧ - يحدث فى مصر الآن . رواية . طبعة أولى ١٩٧٧ . طبعة رابعة ١٩٨٦ .
ترجمت إلى الروسية . والعبرية .
- ٨ - الحرب فى بر مصر . رواية . طبعة أولى ١٩٧٨ . طبعة خامسة ١٩٩١
ترجمت إلى الروسية والاوكرانية والانجليزية والفرنسية والهولندية
والألمانية .
- ٩ - حكايات الزمن الجريح قصص قصيرة . طبعة أولى ١٩٨٠ . طبعة ثانية
١٩٨٢ .
- ١٠ - تجفيف الدموع . قصص قصيرة طبعة أولى ١٩٨١ طبعة ثانية ١٩٩٠ .
- ١١ - شكاوى المصرى الفصيح . ثلاثية .
الجزء الأول : نوم الاغنياء طبعة أولى ١٩٨١ . طبعة الثالثة ١٩٨٩ .
الجزء الثانى : المزاد طبعة أولى ١٩٨٣ . طبعة ثانية ١٩٨٩ .

- الجزء الثالث : ارق الفقراء طبعة أولى ١٩٨٥ طبعة ثانية ١٩٨٩ .
- ١٢ - قصص من بلاد الفقراء . قصص قصيرة . طبعة أولى ١٩٨٣ .
- ١٣ - من يذكر مصر الاخرى ؟ قصص قصيرة . طبعة أولى ١٩٨٤ .
- ١٤ - من يخاف كمب ديفيد ، قصة طويلة . طبعة أولى ١٩٨٥ .
ترجمت إلى الروسية .
- ١٥ - الضحك لم يعد ممكنا قصص قصيرة . طبعة أولى ١٩٨٧ .
- ١٦ - القلوب البيضاء رواية . طبعة أولى ١٩٨٧ . طبعة ثانية ١٩٨٩ .
- ١٧ - بلد المحبوب رواية . طبعة أولى ١٩٨٧ .
- ١٨ - وجع البعاد . رواية . طبعة أولى ١٩٨٩ .
- ١٩ - اصوات الصمت حوارات أدبية طبعة أولى ١٩٩١ .

رقم الإيداع : ٤٨٦٠ / ٩٢
I. S. B. N
977 - 09 - 0098 - 2

مطابع الشروق

التأليف ١٦ شارع حراد حمر - هاتف ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨
مكتبات حمر ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣